الباب السابع عشر

حياة الشعب (*)

الفصل الأول

منتجو الثروة

البداية فى الغابة — الزراعة — التعدين — الصناعات اليدوية — التجارة — المال — الضرائب — المجاعات — الفقر والغنى

لم تتلق تربة الهند بذور المدنية عن رضى ، فقد كان شطر عظيم منها تغطيه الغابات التى تسكنها وتذود عنها سباع ونمور وفيلة وثعابين وغيرها من الكائنات الفردية غير الاجتماعية التى تزدرى المدنية على مذهب روسو ؛ فقام صراع حيوى لانتزاع الأرض من هذه الأعداء ، ودام الصراع متخفيا وراء ستار الحركات الاقتصادية والسياسية جميعاً ؛ فقد كان « أكبر » يصيد النمور بالقرب من « مأثوره » ويمسك بالفيلة المتوحشة فى أماكن كثيرة تخلو منها اليوم خلو تاماً ؛ وقد كنت تصادف الأسد إبان العصور الفيدية أينما سرت فى الشمال الغربى من الهند أو فى أجزائها الوسطى ، أما اليوم فلا يكاد يوجد فى شبه الجزيرة كلها ؛ ولكن الثعبان وصنوف الحشرات لا تزال هناك ماضية فى حربها ؛ ففى سنة ١٩٢٦ فتكت الحيوانات المفترسة من الهنود بما يقرب من ألفين (من بين هؤلاء ٨٧٥ قتلتهم النمور الضارية فى أرجاء البلاد ، أما سم الأفاعى فقد أودى بعشرين ألفاً من الهنود ذلك العام[1] .

(*) ينطبق التحليل الآتى إلى حد كبير جداً على الهند بعد عصر الفيدا وقبل الحكم البريطانى ؛ وليذكر القارىء أن الهند اليوم فى تغير دائم ، وأن النظم والأخلاق وأساليب العيش التى كانت تميزها فيما مضى ، قد تكون فى طريقها إلى الزوال اليوم .

ولما خلصت الأرض على مر الزمن من الكواسر ، تحولت إلى حقول يزرع فيها الأرز والقطانى والذرة والخضر والفواكه ؛ فلقد رضيت الكثرة الغالبة من السكان خلال الشطر الأعظم من تاريخ الهند بعيش متواضع قوامه هذه الأغذية الطبيعيـــة ، وكانوا يجففون اللحم والسمك والطيور لطائفتى المنبوذين والأغنياء(*)(٤) ، ولكى يجعلوا طعامهم أشهى — أو ربما أرادوا معونة أفروديت(٣) — زرعوا وأكلوا مقداراً غير مألوف فى سائر البلاد من التوابل ، مثل البهار الهندى والزنجبيل والقرنفل والقرفة ، ولقد صادفت هذه التوابل تقديراً عظيما عند الأوروبيين حتى لقد انطلقوا فى البحار سعياً وراءها فوقعوا على نصف الكرة الأرضية الذى كان مجهولا ، مع أننا جميعاً نظن أن أمريكا قد كشفت لتكون للحب مسرحاً ، كانت الأرض فى العصور الڤيدية ملكاً للشعب فى الهند(٤) ومنذ أيام « شاندرا جوبتا موريا » أصبح العرف بين الملاك أن يطالبوا لأنفسهم بملكية الأرض كلها ، ثم يؤجرونها للزراع مقابل أجر وضريبة يدفعان كل عام(٦) وكان الرى فى العادة من واجبات الحكومة ، ولقد ظل أحد السدود التى شيدها « شاندرا جوبتا » حتى سنة ١٥٠ ميلادية ، ولا نزال نشاهد آثار القنوات القديمة فى شتى أرجاء الهند ، كما نشاهد آثار البحيرة التى احتفرها احتفاراً « راج سنج » — راجبوت رانا فى موار — لتكون خزاناً لمياه الرى (١٦٦١) وأحاطها بحائط من المرمر طوله اثنا عشر ميلا(٧) .

والظاهر أن قد كان الهنود أول شعب استنجم الذهب(٨) فيحدثنا هيرودوت(٩) والمجسطى(١٠٤) عن « النمل الكبير الذى يحفر الأرض طلباً للذهب ، وهو أصغر قليلا فى حجمه من الكلاب ؛ لكنه أكبر من الثعالب » وقد عاون هذا النمل عمال المناجم فى إخراجهم للذهب ، وذلك حين يخدش

(*) كانت ڤيجايا ناجار شذوذاً فى القاعدة ، لأن أهلها كانوا يأكلون لحوم الطير والحيوان (ويحرمون منها البقرة والأبقار) كما يأكلون الضب والفيران والقطط(٤) .

obeikandl.com

الرمل فيظهر الذهب الدفين (*) ولقد كانت الهند مصدراً لكثير من الذهب الذى استخدم فى إمبراطورية فارس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كذلك استنجمت هناك الفضة والنحاس والرصاص والقصدير والزنك والحديد — وكان استنجام الحديد فى وقت باكر من التاريخ إذ كان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد[١١] ؛ وارتقت صناعة طرق الحديد وصبه فى الهند قبل ظهورها المعروف لنا فى أوربا بزمن طويل ؛ فمثلا أقام « ڤكرامادتيا » (حوالى سنة ٣٨٠ ميلادية) فى دلهى عموداً من حديد لا يزال محتفظاً بريقه حتى اليوم ، بعد أن انقضى عليه خمسة عشر قرناً ؛ ولا يزال سر احتفاظه بريقه من عوامل الصدأ والتآكل ، الذى يرجع إلى نوع المعدن ذاته أو إلى طريقة طرقه وصبه ، لا يزال ذلك لغزاً يحير علم المعادن الحديث[١٢] : وقد كان صهر الحديد فى أفران صغيرة توقد بالفحم من كبرى صناعات الهند قبل الغزو الأوربى لتلك البلاد[١٣] لكن هذه الصناعة الهندية لم تصمد لمقاومة مثيلتها فى أوربا ، لأن الثورة الصناعية فى أوربا علمتها كيف تؤدى هذه الصناعة بنفقات قليلة وعلى نطاق واسع ، ولم يعد الناس من جديد إلى استغلال الموارد المعدنية الغنية فى الهند واستكشافها إلا فى يومنا هذا[١٤] .

وظهرت زراعة القطن فى الهند فى عصر سابق لظهوره فى أى بلد آخر ، والأرجح أنه كان ينسج قماشاً فى « موهنجو دارو »[١٥] يقول هيرودوت نص هو أقدم ما بين أيدينا من مراجع عن القطن ، يقول فى جهل ممتع : « وهناك أشجار حوشية تثمر الصوف بدل الفاكهة ، وصوفها يفوق صوف الأغنام جودة وجمالا ؛ ويصنع الهنود ثيابهم من هذه الأشجار »[١٦] ، فلما شن الرومان حروبهم فى الشرق الأدنى ؛ عرفوا هذا « الصوف » الذى تثمره الأشجار[١٧] ؛ وروى لنا الرحالة العرب الذين زاروا الهند فى القرن التاسع بأنه « فى هذه البلاد يصنع الناس أثواباً يبلغون بها درجة من الكمال لا تصادف

(*) لسنا ندرى ما قصة هذا النمل ، لكن الأرجح عندنا أن المقصود حيوانات آكلة للنمل ، لا النمل ذاته .

لها مثيلا فى أى مكان آخر — فهى من الحياكة والغزل على درجة من الرقة تسمح لك أن تُنْفذ الثوب من خاتم متوسط الحجم »(١٨) ، ونقل العرب فى العصر الوسيط هذا الفن عن الهند ، ومن الكلمة العربية « قطن » أخذنا نحن كلمتنا الإنجليزية(١٩) وكلمة « موسلين » أطلقت بادئ ذى بدء على الغزل الرقيق الذى كان يصنع فى الموصل على غرار النماذج الهندية ، وكذلك كلمة « كالكو » (أى البَفْتة) أطلقت على مسماها لأن هذا الصنف من القماش جاءنا لأول مرة (١٦٣١) من مدينة كلكتا الواقعة على شواطىء الهند الجنوبية الغربية ؛ ويحدثنا « ماركوپولو » عن « جوچارات » فى سنة ١٢٩٣ ميلادية فيقول : « إنهم هنا يطرزون بالوشى على نحو من الدقة لا يبلغه أى بلد من بلاد العالم »(٢٠) وما تزال « شيلان » كشمير و « سجاجيد » الهند شاهدة حتى اليوم على براعة النسج الهندى من حيث حبك الديباجة وتصميم الزخارف(*) ، على أن النسج لا يعدو أن يكون واحداً من صناعات يدوية كثيرة فى الهند ، والنساجون إن هم إلا فئة واحدة من فئات الصناعة والتجارة التى أشرفت على تنظيم الصناعة فى الهند وإخضاعها لقواعد وأصول ، ونظرت أوربا إلى الهنود نظرتها إلى الخبراء فى كل ضروب الصناعة اليدوية تقريبا — صناعة الخشب وصناعة العاج وصناعة المعادن وتبييض القماش والصباغة والدبغ وصناعة الصابون ونفخ الزجاج والبارود والصواريخ النارية والأسمنت ؛ وغيرها(٢١) واستوردت الصين من الهند مناظير سنة ١٢٦٠ ميلادية ويصف لنا ، « برتيبه » الرحالة الذى جاب الهند فى القرن السابع عشر يصف لنا الهند بأنها تطِنُّ بأصوات الصناعة طنيناً ؛ وكذلك رأى « فِتْشى » سنة ١٥٨٥ أسطولا من مائة وثمانين مركباً تحمل متنوعات شتى من السلع على نهر جمنة .

(*) راجع السجادة الحمراء التى ترجع إلى القرن السابع عشر فى الهند ، والتى أهداها مستر ج . ب مورجن لمتحف الفن العاصمى (غرفة د ٣)

وازدهرت التجارة الداخلية ، حتى لقد كانت جوانب الطرقات — وما تزال — أسواقاً للبيع والشراء ؛ أما تجارة الهند الخارجية فهى من القدم مثل تاريخها[٢٢] فهناك آثار وجدناها فى سومر وفى مصر تدل على تبادل تجارى بين هذين القطرين والهند ، فى عهد ليس أحدث تاريخاً من سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد[٢٣] ؛ وازدهرت التجارة بين بابل والهند عن طريق الخليج الفارسى بين عامى ٧٠٠ ، ٤٨٠ قبل الميلاد ؛ ومن يدرى فلعل « العاج والقردة والطواويس » التى جاء بها سليمان ، إنما جاءت من المورد نفسه وعن نفس الطريق ؛ وأخذت سفن الهند تشق البحار إلى بورما والصين فى عهد « شاندرا جوپتا » وازدحمت أسواق الهند « الدراڤيدية » بالتجار اليونان الذين أطلق عليهم الهنود اسم « ياڤانا » (أى الأيونيين) ، وكان ذلك فى القرون التى سبقت والتى لحقت مولد المسيح[٢٤] ؛ وكذلك اعتمدت روما فى أيام ترفها المادى ، على الهند فى استيراد التوابل والعطور والدهون ، ودفعت أثماناً عالية فيما ابتاعته من الهند من حرير ووشى وموصلى وأثواب الذهب ، حتى لقد اتهم « پلنى » روما بالإسراف لأنها كانت تنفق كل عام خمسة ملايين دولار على ما تستورده من الهند من أسباب الترف ؛ وكانت روما تستعين كذلك بالفهود والنمور والفيلة التى تأتى بها من الهند ، على إقامة ألعابها فى المصارعة ، وتأدية طقوس القرابين عند الكولوسيوم[٢٥] ؛ وما حاربت روما الحرب البارثية إلا ليظل لها طريق التجارة إلى الهند مفتوحاً ؛ ثم حدث فى القرن السابع أن استولى العرب على فارس ومصر ، ومنذ ذلك الحين أخذت التجارة بين أوروبا وآسيا تمر خلال أيدى المسلمين ، ومن ثم قامت الحروب الصليبية ، وظهر كولمبس ، وانتعشت التجارة الخارجية من جديد فى ظل المغول ؛ ولهذا ازدهرت بالغنى مدينة البندقية ومدينة جنوا وغيرهما من المدن الإيطالية ، بسبب قيامها بما تقوم به الموانى للتجارة الأوروبية مع الهند والشرق ؛ وإن النهضة الأوروبية لتدين للثروة التى جاءت بها هذه التجارة ، أكثر مما تدين للمخطوطات التى جاء بها اليونان إلى إيطاليا ؛ وكان

« لأكبر » إدارة بحرية تشرف على بناء السفن وتنظم حركة الملاحة فى المحيطات فاشتهرت موانى بنغال والسند ببناء السفن ، وبلغت تلك الموانى بهذه الصناعة حداً من الإتقان حدا بسلطان القسطنطينية أن يصنع سفنه هناك بدل صناعتها فى الإسكندرية ، لقلة النفقات هناك ؛ بل إن « شركة الهند الشرقية » ذاتها بنت كثيراً من سفنها فى موانى البنغال(٢٦) .

واستغرق تطور النقد الضرورى لتيسير هذه التجارة عدة قرون ؛ ففى أيام بوذا كانت قطع النقد مستطيلة الشكل غليظة الصنعة ، وكانت تصدرها سلطات اقتصادية وسياسية مختلفة ، ولم تصل إلى الهند مرحلة النقد الذى تضمن الحكومة قيمته إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بتأثير فارس واليونان(٢٧) فأصدر « شرشاه » قطعاً نقدية جميلة الشكل من النحاس والفضة والذهب ، جعل الروبية العملة الأساسية فى أرجاء المملكة(٢٨) .

وفى عهد « أكبر » و « جهان كير » كانت قطع النقود فى الهند أرقى من مثيلاتها فى أية دولة أوربية حديثة من حيث تصميم شكلها من الوجهة الفنية ، وصفاء معدنها(٢٩) ، وكما كانت الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ، كذلك كانت فى الهند فى تلك العصور ، من أن نمو الصناعة والتجارة قد عاقته هنا وهناك كراهة دينية للربا .

يقول المجسطى : « إن الهنود لا يقرضون مالهم بالربا ولا هم يعرفون كيف يقترضون ؛ وإنه لما يجافى الأوضاع المقررة عند الهندى أن يقترف الخطأ فى حق غيره أو أن يحتمل الإيذاء من غيره ، ولهذا تراهم لا يبرمون عقوداً ولا يطلبون الضمانات(٣٠) » .

فإذا ما عجز الهندى عن استغلال ما ادخره فى مشروعاته التى يقوم بها بنفسه ، آثر أن يخفيه أو أن يشترى به جواهر لكونها ثروة يسهل إخفاؤها(٣١) ، ولعل عجزهم هذا عن اصطناع نظام ييسر القروض كان مما عاون « الثورة الصناعية » أن تمهد سبيل السيطرة الأوروبية على آسيا ؛ ومع ذلك فعلى الرغم

من كراهة البراهمة للاقتراض ، أخذت عمليات الاقتراض تزداد شيئاً فشيئاً ، وكانت نسبة الربح تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها المقترض من اثنى عشرة إلى ستين فى المائة ، وكان المتوسط فى جملته عشرين فى المائة(٣٢) ، ولم يكن الإفلاس يتخذ وسيلة لتصفية الديون ، وإذا مات مدين عن دين ، كان على أبنائه وأبناء أبنائه إلى الجيل السادس أن ينوبوا عنه فى الوفاء بذلك الدين(٣٣) .

وفرضت ضرائب باهظة على الزراعة والتجارة تدعيما لأركان الحكومة ، وكان على الفلاح أن يتنازل من محصوله عن مقدار يتراوح بين سدسه ونصفه ، وكذلك فرضت ضرائب كثيرة على تبادل السلع وإنتاجها كما كانت الحال فى أوروبا فى عصورها الوسطى ، وفى أوربا فى عصرنا القائم(٣٤) ، وجاء « أكبر » فرفع ضريبة الأراضى إلى ثلث المحصول ، لكنه لقاء ذلك ألغى كل صنوف الضرائب الأخرى(٣٥) ، ولئن كانت هذه الضريبة على الأرض باهظة ، إلا أن من حسناتها أنها كانت ترتفع مع ازدهار المحصول وتهبط مع الأزمات ، وإذا ما أصيبت البلاد بمجاعة ، فقد كان الفقراء — على الأقل — يموتون دون أن تفرض عليهم الضرائب ، ولم تخل البلاد من سنى المجاعة حتى فى أيام « أكبر » ذات الرخاء (١٥٩٥—٨) ، والظاهر أن مجاعة سنة ١٥٥٦ أدت بالناس إلى أكل اللحوم البشرية وإلى الخراب الشامل ، إذ كانت الطرق رديئة والمواصلات بطيئة الحركة ، فلم يكن يسيراً على فائض منطقة من المناطق أن يطعم أخرى مما أصيب بالقحط .

وكما هى الحال فى كل أرجاء العالم ، كان فى الهند إذ ذاك تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم فى الهند أو أمريكا ، ففى أسفل السُّلَّم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتاوهم صعوداً فئة « الشودرا » الذين لم يكونوا عبيداً بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ، ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هى الحال فى سائر المنازل الاجتماعية

بين الهنود ؛ وكان الفقر الذى وصفه « الأب دِبُوَا » (١٨٢٠)[٣٦] نتيجة الخمسين عاماً من الفوضى السياسية ؛ ولو أن حالة الشعب فى ظل المغول كانت مزدهرة نسبيّا[٣٧] ، فلئن كانت الأجور متواضعة تتراوح بين ما يساوى ثلاث سنتات (السنت عملة أمريكية تساوى أربع مايمات) وتسعاً كل يوم فى عهد « أكبر » إلا أن الأثمان كانت بخسة بما يقابل تلك الأجور القليلة ؛ ففى سنة ١٦٠٠ كانت الروبية (وهى تساوى فى المتوسط ٥ر٣٢ سنت) تشترى ١٩٤ رطلا من القمح أو ٢٨٧ رطلا من الشعير ؛ وأما فى سنة ١٩٠١ فلم تكن الروبية تشترى إلا ٢٩ رطلا من القمح أو ٤٤ رطلا من الشعير[٣٨] ؛ ولقد وصَفَ الحالة إنجليزى سكن الهند سنة ١٦١٦ فوصف « وفرة المواد كلها » بأنها « وفرة عظيمة جداً فى طول البلاد وعرضها » .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن كل إنسان هناك فى مستطاعه أن يجد زاده من الخبز فى وفرة لا تعرف قحطا[٣٩] » . وقال إنجليزى آخر طاف بالهند فى القرن السابع عشر : « إن نفقاته كانت تبلغ فى المتوسط أربع سنتات كل يوم[٤٠] » .

بلغت ثروة البلاد ذروتها فى عهد « شاندرا جوپتا موريا » و« شاه جهان » فقد ضربت الأمثال فى أرجاء العالم كله بثروة الهند فى ظل ملوك « جوپتا » ؛ وصور « يوان شوانج » مدينة هندية بقوله إنها جميلة تزينها الحدائق وأحواض الماء ، ومعاهد الآداب والفنون ، « وسكانها من ذوى اليسار وبينهم أسَرٌ على ثراء عظيم ؛ وتكثر بالمدينة الفاكهة والأزهار ... وللناس مظهر رقيق يلبسون أردية الحرير اللامعة ، وحديثهم ... واضح يوحى بالمعانى ، وهم منقسمون نصفين متعادلين ، نصف يتبع الأرثوذكسية فى الدين ، ونصف آخر يمقت هذه الرجعية الدينية »[٤١] ، ويقول « إلفِنْستون » : « إن الممالك الهندية التى ثل المسلمون عروشها كانت من الثراء بحيث كلّ المؤرخون عن ذكر ما غنمه الغزاة هناك من جواهر هائلة المقدار ونقود كثيرة »[٤٢] ، ووصف « نِكُولو كونتى » ضفاف الكنج (حوالى سنة ١٤٢٠) فقال إنها تمتلىء بصف من

المدن الزاهرة واحدة فى إثر أخرى ، وكلها حسن التخطيط غنى بالحدائق والبساتين والفضة والذهب والتجارة والصناعة(٤٣) ؛ وكانت خزينة «شاه جهان» مفعمة بما فيها حتى لقد احتفر تحت الأرض غرفتين قويتين ، سعة كل منهما ١٥٠,٠٠٠ قدما مكعبة ، وتكاد تمتلىء بالفضة والذهب(٤٤) ويقول « ڤنسنت سمث » : « إن الشواهد المعاصرة لذلك الزمن لتقطع باليقين الذى لا يعرف الشك أن سكان الحضر الذين كانوا يسكنون أهم المدن ، كانوا من ذوى اليسار »(٤٥) ، ووصف الرحالة مدينتى « أجرا » و « فتحبور سكرى » بأن كلا منهما أعظم من لندن وأعرض منها ثراء(٤٦) ؛ ولقد ألفى « أنكتيل دُوپرون » نفسه حين طاف بأقاليم « الماهاراتا » سنة ١٧٦٠ « وسط العصر الذهبى ببساطته وسعادته ... فقد كان الناس باسمين أقوياء فى صحة جيدة(٤٧) » ، وزار « كلايف » مرشد أباد سنة ١٧٥٩ فقال إن تلك العاصمة القديمة للبنغال تساوى لندن التى عرفها فى عصره مساحة وعدد سكان وثراء ، وفيها من القصور ما لا تقاس إليه قصور أوربا . ومن الأغنياء رجال لا يدنو منهم غنىٌّ فى لندن(٤٨) ، ويقول « كلايف » : كانت الهند قطراً لا ينفد ثراؤه»(٤٩) ، ولقد حاكمه مجلس النواب على الإسراف فى الأموال التى اغتصبها لنفسه ، فدافع كلايف عن نفسه فى براعة ، إذ جعل يصف الغنى الذى وجد نفسه محاطاً به فى الهند — فمدنٌ غنية تعرض عليه أى مبلغ أراد لينجبها من فوضى النهب ، وأغنياء يفتحون له أسرارها تكدس فيها الذهب والجواهر أكداساً أكداساً ليأخذ منها ما أراد ، ثم ختم دفاعه قائلا : « إننى فى هذه اللحظة أقف هاهنا دهشاً كيف قنعت بالقليل الذى أخذت »(٥٠) .

الفصل الثانى

تنظيم المجتمع

الملكية – القانون – تشريع مانو – تطور نظام
الطبقات – نشأة البراهمة – امتيازاتهم ونفوذهم –
واجباتهم – دفاع عن نظام الطبقات

لما كانت الطرق رديئة والمواصلات عسيرة ، كان غزو الهند أيسر من حكمها ؛ فلقد حتّمت طبيعة سطحها أن تظل هذه البلاد الشبيهة بأن تكون قارة بأسرها ، خليطاً من دويلات مستقل بعضها عن بعض ، حتى جاءتها السكك الحديدية فوصلت ما تفرق من أجزائها ؛ وفى مثل هذه الظروف لا يمكن لحكومة أن تضمن لنفسها البقاء إلا بجيش قوى ؛ ولما كان الجيش بحاجة إلى قائد مستبد الرأى ليحكمه بكلمة منه دون التأثر بفصاحة الكلام يقوله غيره فى شئون السياسة ، فإن صورة الحكومة التى تكونت فى الهند هى الملكية بطبيعة الحال ؛ ولقد تمتع الناس بقدر كبير من الحرية فى ظل الأسرات الحاكمة الوطنية ، وذلك من جهة يرجع إلى الاستقلال الذاتى الذى كانت تتمتع به القرى فى الريف ونقابات العمال فى المدن ، كما يرجع من جهة أخرى إلى القيود التى فرضتها الطبقة الارستقراطية البرهمية على ساطة الملك(٥١) ؛ وإنك لتجد فى قوانين « مانو » تعبيراً عن الأفكار الرئيسية فى الهند عن الملكية ، على الرغم من أن تلك القوانين أقرب إلى التشريع الخلقى منها إلى التشريع القانونى لأوضاع الحياة الجارية ؛ فعندهم أن الملكية ينبغى أن تكون قوية الشكيمة فى حياد ، وأن ترعى مصالح الناس رعاية الوالد لولده(٥٢) ؛ غير أن الحكام المسلمين كانوا أقل مبالاة من أسلافهم الهنود بهذه المثل العليا وهذه القيود ، لأنهم كانوا أقلية فاتحة ، فأقامت حكمها صراحة على تفوقها العسكرى ؛ فيقول مؤرخ مسلم فى وضوح جميل : إن

الجيش هو عدة الحكومة وعتادها[٥٣] » ، وقد كان « أكبر » ؛ شذوذاً فى هؤلاء الحكام المسلمين ، لأنه اعتمد قبل كل شىء على رضى الشعب لازدهاره تحت حكومته المستبدة فى اعتدال ورحمة ؛ ولعل حكومته فى ظروفها كانت خير حكومة يمكن قيامها ؛ وأهم عيوبها — كما أسلفنا — هو اعتمادها على شخصية الملك ، لأن السلطة العليا المرتكزة فى يد الحاكم كانت خيراً فى عهد « أكبر » لكنها كانت شراً مستطيراً فى عهد « أورنجزيب » ؛ ولما كان الحكام الأفغان والمغول قد ارتفعوا إلى سلطانهم بالعنف ، فقد كانوا دائماً عرضة إلى الهبوط عن سلطانهم بالاغتيال ، وكادت الحروب التى تُشَنّ ليحلّ ملك مكان آخر ، تكلف من النفقات ما تكلفه الانتخابات فى عصرنا الحديث ، ولو أن تلك الحروب لم تكن عقبة فى سبيل اطراد الحياة الاقتصادية كما هى الحال مع انتخاباتنا اليوم[*] .

لم يكن القانون فى ظل الحكام المسلمين إلا إرادة الإمبراطور أو السلطان ؛ أما فى ظل الملوك الهنود فقد كان مزيجاً مضطرباً من الأوامر الملكية ومن تقاليد القرى وقواعد الطبقات وكان الذى يتولى القضاء رئيس

(*) إن قصة اغتيال ناصر الدين لأبيه غياث الدين سلطان دهلى بالسم (١٥٠١) توضح الفكرة الإسلامية عن الاستيلاء على العرش بطريقة سلمية ، وها هو ذا « جهان كير » الذى لم يدخر وسعاً فى إنزال أبيه « أكبر » عن عرشه ، يقص القصة :

« وبعد ذلك ذهبت إلى البناء الذى يحتوى على أضرحة الحكام الخالجيين ، وكان بينهما قبر ناصر الدين الذى وصم وصمة العار إلى الأبد ، فكلنا يعرف أن هذا المنكود قد ارتقى إلى العرش باغتيال أبيه ، فجرّعه السم مرتين ، واستطاع أبوه فى كلتا الحالتين أن يطهر آثار السم بترياق كان يحمله على ذراعه ؛ وفى المرة الثالثة مزج الإبن قطرات السم بكوب من الشراب وقدمه إلى أبيه بنفسه ... ولما كان أبوه يعلم ما يبذله ابنه من جهود فى سبيل التخلص منه ، فقد نزع عن ذراعه التميمة وقذف بها أمامه ، ثم أدار وجهه فى خضوع وخشوع إلى عرش الخالق وقال : اللهم إنى قد بلغت هن العمر ثمانين عاماً أنفقتها فى ازدهار وسعادة لم يتمتع بمثلهما ملك قبلى ؛ ولما كانت هذه آخر لحظات حياتى ، فأضرع إليك اللهم ألا تحول بين ناصر وبين قتلى ، وأن تعد ملاقى أمراً من أمرك فلا تنتقم لى منه » ؛ وبعد أن فاه بهذه الكلمات جرع ذلك الكوب من الشراب المسموم بجرعة واحدة وأسلم روحه إلى ربه .

ويضيف « جهان كير » الفاضل إلى ذلك قوله . « ولما ذهبت إلى قبره (أى قبر ناصر) ركلته عدة ركلات »[٥٤] .

الأسرة ، أو رئيس القرية ، أو شيوخ الطبقة ، أو محكمة النقابة ، أو مدير الإقليم أو وزير الملك أو الملك نفسه[٥٥] على أن المحاكمة كانت سريعة الإجراء سريعة الحكم ، ولم تعرف البلاد نظام المحاماة فى القضايا على أيدى رجال القانون إلا بعد قدوم البريطانيين[٥٦] وكان التعذيب مألوفاً فى عهود الأسرات الحاكمة كلها حتى ألغاه « فيروزشاه »[٥٧] والموت هو العقوبة فى عدد كبير جداً من الجرائم ، فقد كانوا يعاقبون به سرقة المنازل وإتلاف أملاك الملك الخاصة ، أو السرقة على النطاق الذى نراه اليوم يجعل من السارق عموداً من عمدان المجتمع وكانت سائر ألوان العقاب قاسية تشمل بين أنواعها بتر الأيدى والأقدام والأنوف والآذان وفقء الأعين وصب الرصاص المصهور فى الحلوق وتهشيم عظام الأيدى والأقدام بمطرقة خشبية وإحراق الجسم بالنار وإنفاذ المسامير فى الكفوف والأقدام والصدور ، وقطع أعصاب المفاصل ونشر الناس بمناشير الخشب ثم قطع جسومهم أجزاء وإنفاذ القضبان المسنونة فيهم وشيّهم على النار أحياء وقذفهم تحت أقدام الفيلة لتدقهم دقاً حتى يموتوا أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة(*)[٥٨] .

ولم يكن هناك تشريع قانونى واحد يشتمل الهند بأسرها ، فكان يحل محل القانون فى شئون الحياة اليومية ما يسمونه « ذارماشاسترا » أى النصوص العرفية التى تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات ، والذى كتب هذه النصوص رجال من البراهمة ، كتبوها من وجهة نظر برهمية خالصة ، وأقدم هذه النصوص ما يسمى « بتشريع مانو » ، ومانو هذا هو السلف الأسطورى الذى تسلسلت عنه جماعة المانوية (أو مدرستها الفكرية) المؤلفة من براهمة بالقرب من دلهى ؛ وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه[٥٩] وهذا التشريع مؤلف من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ، كانوا يرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . لكن الباحثين اليوم يردّونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح[٦٠]

(*) وتجد فى كتاب ديموا ص ٦٥٩ أنواعاً من العقاب أدق من هذه فى إظهار روح الشر .

ولقد أريد بهذا التشريع بادئ الأمر أن يكون بمثابة الدليل أو الكتاب الصغير الذى يرشد براهمة المانوية هؤلاء إلى أوضاع السلوك الصحيح ، لكنه أخذ على التدريج يتطور فيصبح تشريعاً يحدّد قواعد السلوك للمجتمع الهندى كله ، وعلى الرغم من أن ملوك المسلمين لم يعترفوا به قط ، إلا أنه اكتسب كل ما للقانون من قوة داخل حدود نظام الطبقات ، وستتبين خصائص هذا التشريع إلى حدما خلال الصفحات الآتية بما أوردناه فيها من تحليل للمجتمع الهندى وأخلاقه ، لكنه على وجه العموم كان يتسم بمظهر خرافى من حيث قبوله لمبدأ المحاكمة بالمحنة(*) وتطبيقه تطبيقاً متزمتاً لقانون العين بالعين والسن بالسن ، وإشادته مرة بعد مرة بطبقة البراهمة فى فضائلها وحقوقها ونفوذها(٣٦) وكان من تأثير هذا الكتاب أن زاد زيادة عظيمة من سيطرة نظام الطبقات على المجتمع الهندى .

كان هذا النظام الطبقى قد ازداد تزمتاً وتعقيداً منذ العصر الفيدى ، لأن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، ولأن اجتياح الهند — من جهة أخرى — بالشعوب الأجنبية والعقائد الخارجية قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سداً قوياً يحول دون امتزاج دم المسلمين بدم الهنود ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد ، وكان معنى التقسيم الطبقى شيئين ،

(*) « الأب ديبوا » صادق على الجملة ، على الرغم من عدم عطفه على الهنود ، وهو يصور لنا المحن التى كانوا ينزلونها بالمتهمين فى عصره (١٨٢٠) فيقول : « وهناك أنواع أخرى كثيرة للمحاكمة بالمحن ، منها أن يغلى الزيت ممزوجاً بروث البقرة وعلى المتهم أن يدس فيه ذراعه حتى المرفق ؛ ومنها محنة الثعبان ، وتفصيلها أن يوضع ثعبان من أخطر الثعابين سما فى سلة مقفلة ، ويضعون فى السلة خاتماً أو قطعة من النقود ، وعلى المتهم أن يخرج هذه القطعة أو ذلك الخاتم وعيناه معصوبتان ؛ فإذا لم يُصَب جلده بحروق فى الحالة الأولى ، أو إذا لم يعضه الثعبان فى الحالة الثانية ، عد ذلك برهان براءته القاطع »(٦٢) .

معناه من جهة وراثة الوضع الاجتماعى ، ومعناه من جهة أخرى قبول كتاب « ذارما » — أى قبول ما تفرضه التقاليد على أفراد كل طبقة من التزامات وصنوف أعمال .

وعلى رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، هم الثمانية الملايين من ذكور طبقة البراهمة(٦٤) ؛ وكانت طبقة البراهمة هذه قد أصابها الضعف حيناً من الزمن بسبب نهضة البوذية فى عهد « أشوكا » لكن البراهمة بما كان لهم من دأب وصبر يتصف بهما الكهنة على اختلاف أوطانهم ، مالوا للحوادث ، ثم استعادوا نفوذهم وسيادتهم فى ظل ملوك « جوپتا » وما نزال نرى وثائق منذ القرن الثانى بعد الميلاد بمنح عظيمة — خصوصاً إقطاعيات من الأرض — تُوهَبُ لطبقة البراهمة(٦٥)(*) وكانت هذه المنح — شأنها شأن أملاك البراهمة كلها معفاة من الضرائب حتى جاء البريطانيون(٦٦) فتشريع مانو يحذر الملك من فرض ضريبة على برهمى ، حتى إن نضبت كل موارد المال الأخرى ، لأن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص سحرية(٦٧) ؛ ولم يكن من عادة الهنود أن يوصوا بشىء قبل موتهم فيما يختص بميراثهم ، لأن من تقاليدهم أن أملاك الأسرة لا بد أن تظل ملكاً مشاعا للأسرة كلها وهى تنتقل انتقالا آليا من موتى الذكور فى الأسرة إلى أحيائهم(٦٨)(**) لكن الأربيين بما يسودهم من نزعة نحو الفردية ، لم يكادوا يدخلون فى الهند نظام الوصايا ، حتى رحب به البراهمة ترحيباً عظيما ، ليتخذوا منه حيناً بعد حين وسيلة للاستيلاء على الأراضى لأغراض كهنوتية(٧٠) وكان أهم عنصر فى تقديم القرابين للآلهة هو الرسوم التى تدفع للكاهن المشرف على إقامة الطقوس الخاصة بذلك ، ورأس التقوى كلها هو السخاء فى دفع تلك الرسوم(٧١) وكذلك كان من موارد الكهنة الخصبة الإتيان بالمعجزات

(*) يعتقد « تود » أن بعض هذه الوثائق مزوّر تزويراً دفعت إليه التقوى الدينية(٦٦) .

(**) لكن جماعة الدرافيديين تنقل الإرث إلى طبقات إناثهم(٦٩) .

وغير ذلك من ألوف الخرافات : فلقاء رسم معين يستطيع البرهمى أن يجعل من العاقر ولوداً ، ونظير أجر معلوم ينبىء البرهمىّ بما خُطّ فى لوح القدر ؛ وكان البراهمة يستخدمون رجالا يطلبون إليهم أن يتظاهروا بالجنون وأن يعترفوا بأن هذا المس الذى أصابهم إنما جاءهم جزاء وفاقاً لما قترفوا فى العطاء للكهنة ؛ وكان الرجل من البراهمة يُقصد فى كل حالات المرض أو المحاكمات أو حالات التشاؤم ببعض النذر السيئة أو الأحلام المزعجة أو البدء فى مشروع جديد ، كان الرجل من البراهمة يُقْصد فى كل تلك الحالات طلباً لمشورته ، وللمشير أجر مشورته(٧٢) .

وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا التى هبط بها الوحى ولا يأتيها الباطل ، ولو أنصت رجل من طبقة « الشودرا » إلى تلاوة الكتب المقدسة ، امتلأت أذناه بالرصاص المصهور (هكذا تقول كتب القانون البرهمية) ، وإن تلاها هو انشقّ لسانه ، ولو حفظ شيئاً منها قُطع جسده نصفين(٧٣) . هذه النذُر وأمثالها — التى لم تُوَقّع فعلا إلا فى حالات نادرة — هى التى كان يلجأ إليها الكهنة ليصونوا لأنفسهم العلم فلا يشاركهم فيه مُعْتَدٍ ؛ وهكذا أصبحت البرهمية مذهباً خاصاً بفئة معينة تحيط نفسها بسياج ، لا تأذن لأحد من غير أفرادها أن يسهم فى العلم به(٧٥) وينص تشريع مانو على أن يكون من حق البرهمى سيادته على سائر الكائنات(٧٦) على أن الفرد منهم لم يكن ليتمتع بكل ما للبراهمة من نفوذ وامتيازات حتى ينفق فى مرحلة الاستعداد أعواماً كثيرة ، وبعدئذ « يولد ولادة جديدة » وتُجْرى له طقوس الخيط الثلاثى(٧٧) ، فإذا ما تم له ذلك ، أصبح منذ هذه اللحظة كائناً مقدساً ، وأصبح شخصه وملكه مما لا يجوز عليه الاعتداء ؛ بل يذهب « مانو » فى ذلك بعيداً فيقرر أن « كل

ما هو كائن فى الوجود ملك البراهمة »(٧٨) ؛ وكان لا بد لصيانة الطبقة البرهمية من منح عامة وخاصة — وهى لا توهب لهم على سبيل الإحسان ، بل من باب الواجب المقدس(٧٩) وكان السخاء فى العطاء للبرهمى من أسمى الواجبات الدينية ؛ ويستطيع البرهمى الذى لا يجد ترحيباً كريماً فى أحد المنازل أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان استحقه من جزاء عن حسناته السابقة جميعاً(٨٠)(*) ولو اقترف البرهمى كل جريمة ممكنة ، لما حق عليه القتل ، فللملك أن ينفيه ، لكن لا بد له أن يأذن بالاحتفاظ بملكه(٨٣) ومن حاول أن يضرب برهميا ، كان لزاماً عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضرب برهمياً بالفعل ، فقد حقت عليه الجحيم ألف عام(٨٥) وإذا اعتدى رجل من الشودرا على عفاف زوجة رجل من البراهمة ، صودرت أملاكه وحكم عليه بالخصى(٨٦) وإذا قتل رجل من الشودرا زميلا له من الشودرا ، كان له أن يكفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، فإذا قتل أحداً من « الڤيزيا » كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة ، وإذا قتل أحداً من « الكشاترية » ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة ، أما إن قتل برهمياً فلا بد من قتله ، ذلك لأن جريمة القتل عندهم لم تكن إلا بقتل برهمى(٨٧) .

وكان على البرهمى فى مقابل هذه الامتيازات أعمال والتزامات كثيرة وفادحة ؛ فلم يكن يقوم بواجبات الكاهن العملية وكفى (**) ، لكنه كان إلى جانب ذلك يعد نفسه للمهن الكتابية والتربوية والأدبية ، وكان ينتظر منه

(*) يظهر أن بعض فئات البراهمة كان من حقهم بعض الأجور الإضافية يتقاضونها على هيئة متعة جنسية ، فبراهمة نامبوردى كانوا يتمتعون « بحق الليلة الأولى » عند كل عروس تزف فى منطقة نفوذهم ، وكهنة پوشتيمارجيا فى بمباى ظلوا يحتفظون بهذا الحق حتى العصور الحديثة(٨١) ولو أخذنا بما يقوله (الأب دبوا » فإن كهنة معبد تيروپاتى (فى جنوب الهند الشرقى) كانوا على استعداد لمعالجة العقم فى المرأة إذا ما قضت ليلة فى المعبد(٨٢) .

(**) لم يكن الكهنة كلهم من البراهمة ، وأخيراً لم يكن كثير من البراهمة كهنة ؛ ففى « الأقاليم المتحدة » تجد عدداً كبيراً منهم يشتغل بالطهى .

أن يدرس القانون وأن يحفظ كتب الڤيدا وكل واجب آخر من واجباته ، إنما يأتي بعد ذلك في الأهمية[٨٩] ، ولو لم يستطع البرهمي سوى أن يتلو كتب الڤيدا ، فإنه بذلك وحده يصبح جديراً بطمأنينة النفس بغض النظر عما قام به غير ذلك من طقوس أو إنتاج[٩٠] ، أما إن حفظ عن ظهر قلب كتاب « رجْ ڤيدا » ، فإنه يستطيع بعد ذلك أن يحطم العالم تحطيما دون أن يُعَدّ ذلك منه اقترافاً لجريمة[٩١] ، وليس من حقه أن يتزوج من خارج طبقته ، فإن تزوج امرأة من طبقة الشودرا ، عُدّ أبناؤه من الطبقة الدنيا ، طبقة « الپاريا » ؛ وفي ذلك جاء في كتاب مانو : إن الرجل الطيب العنصر بمولده إنما يفسد عنصره بصحبة الأدْنين ، أما من كان دنيا بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين »[٩٢] ، وكان على البرهمي أن يستحم كل يوم ؛ وأن يعود فيستحم مرة أخرى إذا حلق له حلاق من الطبقة الدنيا ؛ وعليه أن يطهر المكان الذي أعده لنومه بروث البقر ، ولا بد له أن يراعي طقوساً دقيقة في مباشرته لضرورات طبيعته[٩٣] ، ومحتوم عليه أن يمتنع عن أكل الحيوان بكافة أنواعه ، بما في ذلك البيض ، وأن يمتنع كذلك عن أكل البصل والثوم ونبات الفُطْر ونبات الكُرّات ، ولم يكن يجوز له أي ضرب من ضروب الشراب غير الماء ، ويشترط أن يستخرجها وأن يحملها برهمي[٩٤] ، وتحرم عليه صنوف الدهون والعطور واللذة الحسية والجشع والغضب[٩٥] ، وإذا مس شيئاً نجساً ، أو لمس أجنبياً (حتى إن كان ذلك الأجنبي هو الحاكم العام للهند) كان لابد له من أن يطهر نفسه بالوضوء الذي تحدده الطقوس ، ولو اقترف إثماً ، كان لزاماً عليه أن يتقبل عقاباً أعنف مما يقع على مرتكب الإثم نفسه من طبقة دنيا ؛ فمثلا لو سرق رجل من طبقة الشودرا شيئاً ، حكم عليه أن يدفع غرامة قدرها ثمانية أمثال قيمة الشيء المسروق ، وإذا سرق رجل من طبقة « الڤيزيا » شيئاً دفع غرامة تساوي ستة عشر مِثْلا ، والرجل من « الكشاترية » يدفع اثنين وثلاثين مِثْلا ، وأما البرهمي فيدفع غرامة

قدرها أربعة وستين ميلا ؛ وكان يستحيل على البرهمى أن يؤذى كائناً حياً(٩٧) .

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاءً على وجه الدهر ، وذلك لاعتدالهم فى مراعاة هذه القواعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعباً أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية ، فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان ؛ فيستحيل أن تجد هذه الظواهر العجيبة فى أى مكان آخر غير الهند — وهى ظاهرة نموذجية تمثل بطء التغير فى الهند — وأعنى بها أن تظل طبقة عليا محتفظة بامتيازاتها وعلو مكانتها على مر العصور بكل ما شهدته من غزوات وأسرٍ حاكمة وحكومات مدى ٢٥٠٠ عام ؛ ولا ينافسهم طولَ البقاء إلا « الشاندالا » طريدة الطبقات ؛ أما فئة « الكشاترية » القديمة التى كان لها السلطان على الميدان الفكرى والسياسى فى عهد بوذا ، فقد توارت بعد عصر جوپتا ، وعلى الرغم من أن البراهمة اعترفوا بمحاربى « راچپوت » واعتبروهم بمثابة تطور طرأ على الطبقة المحاربة القديمة ، إلا أن الكشاترية — بعد سقوط راچپوتانا — لم يلبثوا أن دالت دولتهم ، وأخيراً لم يبق إلا طائفتان كبيرتان ، وهما طائفة البراهمة التى كانت طبقة الحكام فى الهند من الناحية الاجتماعية والفكرية ، ثم يأتى تحتهم ثلاث آلاف طبقة هى فى حقيقة الأمر عبارة عن النقابات الصناعية(*) .

ولو استثنيت نظام الزوجة الواحدة من حيث إساءة تطبيقه ، لجاز لك أن تقول إن نظام الطبقات أكثر النظم الاجتماعية سوء تطبيق ، ولولا ذلك لوجدت ما تقوله فى الدفاع عن هذا النظام ، فله حسنة التصفية الاجتماعية التى تصون ما تزعم أنه دم نقى من الشوائب ومن الانقراض اللذين ينتجان حتماً عن تلك

(*) راجع الفصل التاسع ، فى قسمه الرابع لتلمّ بنظام الطبقات فى عصرنا .

قيود الامتزاج بالزواج : وكذلك لنظام الطبقات حسنة أخرى ، وهى تدعيمه لطائفة من عادات الطعام والنظافة التى كان يتحتم على كل إنسان أن يراعيها وأن يسمو إليها صوتاً لكرامته ؛ وكذلك خلع ثوب النظام على ما بين الناس من تفاوت وفروق، لولاه لأصبحت فوضى بغير ضابط ، ووفر على الناس هذه الحمى التى تطغى عليهم فى عصرنا الحديث ، حمّى الصعود فى سُلّم المجتمع والزيادة من كسب المال ، ونظم الحياة لكل إنسان بأن حدد له تشريعاً معيناً للسلوك فى طبقته ، كما أعطى أفراد الطبقة الواحدة وسائل تعينهم على الاتحاد فى العمل ضد كل استغلال أو استبداد ، ثم هيأ نظام الطبقات أيضاً مهرباً من الطغيان أو الدكتاتورية العسكرية اللذان لا محيص عن أحدهما بديلا للأرستقراطية وأتاح لبلد حرم الاستقرار السياسى بسبب ما قاساه من مئات الغزوات والثورات ، أتاح له نظاماً واستقراراً فى شئونه الاجتماعية والخلقية والثقافية ، لم ينافسه فيهما بلد آخر إلا الصين ، ولقد طرأ على الدولة مئات التغييرات الفوضوية ، لكن البراهمة احتفظوا باستقرار المجتمع بفضل نظام الطبقات ، وبهذا احتفظوا بالمدنيّة وازدادوا منها ونقلوها إلى الخلَف ، واحتملتهم الأمة صابرة ، بل احتملتهم فخورة بهم ، لأنه لم يغب عن إنسان واحد أنهم فى النهاية هم القوة الحاكمة التى ليس للهند عنها محيص .

الفصل الثالث

الأخلاق والزواج

« ذارما » – الأطفال – زواج الأطفال – فن الحب – الرنا – الحب الشعرى – الزواج – الأسرة – المرأة – حياتها العقلية – حقوقها – « البردة » – السوتى (أى موت الزوجة لموت زوجها) – الأرملة

إذا ما انقرض من الهند نظام الطبقات ، تحتم أن يطرأ على الحياة الخلقية فيها طور طويل الأمد تسوده الفوضى ، لأن التشريع الخلقى فى هذه البلاد قد ارتبط بنظام الطبقات ارتباطاً يكاد لا يكون له انفصام ، والأخلاق عندهم هى « ذارما » – أى أنها هى قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ؛ فلأن تكون هندوسىّ المذهب ، فليس معنى ذلك اعتناقك لعقيدة بقدر ما هو اتخاذك مكاناً معيناً فى نظام الطبقات ، وقبولك « الذارما » أى الواجبات التى تترتب على مكانك ذاك ، وفق ما تقضى به التقاليد والقوانين ، ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا مندوحة للهندوسىّ الورع أن يسلك حياته ملتزماً تلك الالتزامات والقيود والحقوق ، واجداً فيها قناعة الراضى بالطريق الذى مُهِّد له لكى يسير فيه ، ولا يطوف بباله قط أن يجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى ؛ جاء فى كتاب « بها جاڤاد جيتا[٩٨] » « خير لك أن تؤدى عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدى عملا مقسوماً لغيرك أداء حسناً » إذ « ذارما » للفرد من الناس هى بمثابة النمو الطبيعى للبذرة – تحقيق مرسوم الطريق لطبيعته كامنة فيها وقضاء مكتوب عليها[٩٩] ، ولقد بلغ هذا التصور للأخلاق من الرسوخ فى القِدم مبلغاً جعل من المتعذر على الهندوس جميعاً ومن المستحيل على الكثرة الغالبة منهم أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة لا تجعلهم أعضاء طبقة معينة ، تهديهم وتقيدهم قوانينها ؛ وفى ذلك يقول

مؤرخ إنجليزى : « يستحيل تصور المجتمع الهندى بغير نظام الطبقات[١٠٠] » .

وإلى جانب « الدارما » الخاصة بكل طبقة على حدة ، نرى الهندوسيين يعترفون « بدارما » عامة ، أى التزامات تلتزم بها جميع الطبقات ، وتتضمن قبل كل شىء احتراماً للبراهمة وتقديساً للبقر[١٠١] ، ويأتى بعد ذلك فى الأهمية واجب النسل ، ففى تشريع « مانو » مايلى[١٠٢] : « بالنسل وحده يكمل الرجل ، فهو يكمل إذا ما أصبح ثلاثة — شخصه وزوجه وابنه » ، فليس الأبناء حسنة اقتصادية لآبائهم فحسب ، يعولونهم فى شيخوختهم بغير أدنى تردد فى هذا الواجب ، بل هم إلى جانب ذلك سيمضون فى عبادة الأسرة لأسلافها ، ويقدمون لأرواح هؤلاء الأسلاف طعاماً آناً بعد آن ؛ حتى لاتفنى أرواحهم إذا امتنع عنها الطعام[١٠٣] ، وبناء على ذلك لم يعرف الهنود ضبط النسل ، وعُدَّ الإجهاض جريمة تساوى فى فداحتها جريمة قتل برهمى[١٠٤] ، نعم كان يحدث أحياناً أن تقضى الأمهات على الأجنة[١٠٥] ، لكن ذلك كان نادر الوقوع ، لأن الوالد كان يسره أن ينسل الأبناء ، ويفخر إذا كان له منهم عدد كبير ، وإن حَنَان الشيوخ على الصِّغار بين الهنود لمن أجمل ظواهر المدنية الهندية[١٠٦] .

ولم يكد الطفل عندهم يشهد النور حتى كان يأخذ أبواه فى التفكير فى زواجه ، لأن الزواج — فى النظام الهندى — إجبارىٌّ للجميع ، والرجل الأعزب طريد الطبقات ، ليس له فى المجتمع مكانة ولا اعتبار ، وكذلك بالنسبة للفتاة إن طال بها الأمد عذراء بغير زواج ، فذلك عار أى عار[١٠٧] على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد يختار من يشاء ، أو لدفعة الحب تدفع العاشق إلى زواج من يهوى ، بل كان الزواج عندهم أمراً حيوياً تهتم له الجماعة كلها والجنس كله ، فيستحيل أن يوكل أمره إلى العاطفة بما لها من قصر النظر بعواقب الأمور ، أو إلى المصادفة تجمع من شاءت[١٠٨] فلا بد أن يتولى الوالدان أمر زواج الوليد قبل أن تستولى عليه حمَّى الرغبة

الجنسية فتقذف به إلى زواج مصيره – فى نظر الهنود – إلى خيبة الرجاء واليأس المرير : ولقد أطلق « مانو » اسم « زواج الجاندارفا » على الزيجات التى تتم باتفاق الزوجين ، ووصف أمثال هؤلاء وصفاً شائناً إذ وصفهم بأنهم وليدو الشهوة ؛ نعم إن التشريع يبيح مثل هذا الزواج ، لكن الزوجين عندئذ يوشكان ألا يجدا عند الناس شيئاً من الاحترام .

ولقد أدى النضوج المبكر بين الهنود ، الذى يجعل البنت فى سن الثانية عشرة مساوية لزميلتها فى أمريكا فى سن الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة ، إلى خلق مشكلة عويصة فى النظام الاجتماعى والخلقى(*) فهل الأفضل أن يدبَّر الزواج بحيث يطابق سن النضوج الجنسى ، أم الأفضل أن يرجأ – كما فى أمريكا – حتى يبلغ الرجل نضوجه الاقتصادى ؟ والظاهر أن الحل الأول للمشكلة يؤدى إلى ضعف البنية فى أبناء الأمة(١١٠) ويزيد من عدد السكان زيادة سريعة لا تتمشى مع مقتضيات الظروف ، ويضحى بالمرأة تضحية تكاد تكون تامة فى سبيل النسل ؛ وأما الحل الثانى فيؤدى إلى مشكلة أخرى وهى التأخير الذى تأباه الطبيعة ، وإلى كبح الرغبة الجنسية كبحاً يؤدى إلى حبوطها ، كما يؤدى إلى الدعارة والأمراض السرية ؛ ولقد آثر الهنود لأنفسهم زواج الأطفال على اعتبار أنه أهون الشرين ، وحاولوا أن يخففوا من أخطاره بأن يجعلوا بين الزواج وبين إثماره فترة تبقى فيها العروس مع والديها حتى يتم نضجها(١١١) ، هذا عندهم نظام اجتماعى قديم ، ومن قدمه جاءت قداسته ، وإنما نبتت جذوره بادئ ذى بدء من رغبة الناس فى منع التزاوج بين الطبقات تزاوجاً قد تسببه مجرد الجاذبية الجنسية العابرة(١١٢) ثم ازداد فى نفوس الناس

(*) يجب أن نضيف هنا أن غاندى ينكر أن يكون هذا التبكير فى النضوج قائماً على أساس جثمانى ، فهو يقول : « إنى أمقت وأكره زواج الأطفال ، ويهتز كيانى إن رأيت أرملة طفلة ، ولست أرى أمعن فى التخريف من خرافة تقول إن مناخ الهند يسبب التبكير فى النضوج الجنسى ؛ فالذى يسبب النضوج قبل أوانه هو الجو الفكرى والخلقى الذى يحيط بالأسرة فى حياتها »(١٠٩) .

قوة فيما بعد ، بسبب أن المسلمين الغزاة ، الذين لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا حتى لو لم يكونوا غزاة فاتحين ؛ كانت ديانتهم لا تحرم عليهم أن يسبوا النساء المتزوجات ليكنّ لهم إماء(١١٣) ، وأخيراً اتخذ النظام شكله الجامد الذى جعله تصميما عند الأبوين على وقاية ابنتهما من استثارة الذكور لحساسيتها الجنسية .

والدليل على أن هذه الحساسية عند البنت كانت مرهفة إلى حدما ، وعلى أن الذكر قد يعهد إليه أداء وظيفته البيولوجية لأقل مثير يثير شهوته ، ظاهر فى أدب العشق عند الهنود ، فكتاب « كاما سُوترا » ومعناها « مذهب الشهوة » هو أشهر كتاب من بين مجموعة كبرى كلها يعبر عن اشتغال عقولهم إلى حد ملحوظ بفنون العلاقة الجنسية فى صورتيها الجسدية والعقلية ؛ ويؤكد لنا مؤلف الكتاب أنه كتبه « وفق المبادئ التى جاءت فى الكتاب المقدس لفائدة العالم ؛ وكاتبه هو ڤاتسياپانا ، كتبه عند ما كان يحيا حياة طالب دينى فى بنارس ، ولا يعنيه شىء فى الدنيا سوى التأمل فى ذات الله »(١١٤) ويقول هذا الناسك : « إن من يهمل فتاة ، ظناً منه أنها أكثر حياء من أن تكون موضع صلة جنسية ، تزدريه هذه الفتاة نفسها وتعده حيواناً يجهل طبيعة ما يدور فى عقل المرأة »(١١٥) ويصور لنا « ڤاتسياپانا » صورة جميلة لفتاة عاشقة(١١٦) لكنه يتجه بمعظم حكمته إلى تصوير فن الأبوين فى التخلص منها بالزواج ، وفن الزوج فى إشباع رغبات جسدها .

ولا يجوز لنا أن نفرض بأن الحساسية الجنسية عندالهنود قد انتهت بهم إلى إباحية أكثر من الحد المألوف عند غيرهم ؛ فقد أقام زواج الأطفال سداً فى وجه العلاقات الجنسية السابقة للزواج ؛ والعقوبات الدينية الصارمة التى كانوا ينذرون بوقوعها ليحملوا الزوجة على الوفاء لزوجها ، جعلت الزنا أصعب جداً وأندر جداً مما هو عليه فى أوربا أو أمريكا ؛ وكان الزنا فى الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد ؛ ففى الأصقاع الجنوبية كانت رغبات الرجل الشهوانى

تشبعها له من كنّ يطلق عليهن « خادمات الله » طائعات فى ذلك أوامر السماء ، وما خادمات الله — أو « دقاداس » كما يسمونهن — إلّا العاهرات ؛ وفى كل معبد فى « تاميل » مجموعة من « النساء المقدسات » اللائى يستخدمهن المعبد أول الأمر فى الرقص والغناء أمام الأوثان ، ثم من الجائز أن يُستخدمن بعد ذلك فى إمتاع الكهنة البراهمة ؛ وبعض هؤلاء النسوة — فيما يظهر — قد قصرن حياتهن على عزلة المعابد وكُهّانها ، وبعضهن الآخر قد وسّع من نطاق خدماته بحيث يشمل كل من يدفع أجراً لمتعته ، على شريطة أن يدفعن لرجال الدين جزءاً من كسبهن عن هذا الطريق ، وكان كثير من زانيات المعابد — أو فتيات الرقص — يقمن بالرقص والغناء فى الحفلات العامة والاجتماعات الخاصة ، على نحو ما يفعل فتيات « الجيشا » فى اليابان ؛ وكان بعضهن يتعلم القراءة ، فيكنّ وسيلة أحاديث ثقافة فى المنازل حيث لا تجد الزوجة ما يشجعها على القراءة ، ولا يسمح لها بمخالطة الأضياف ، وهؤلاء الفتيات للقارئات شبيهات بمن كنّ يُسمين hetairai عند اليونان : ويحدثنا نص مقدس أنه فى سنة ١٠٠٤ ميلادية كان فى معبد الملك الكولىّ « راجا راجا » فى تانجور أربعمائة امرأة من « خادمات الله » ؛ وأكسب الزمان هذه العادة صبغة الجلال ، فلم ير فيها أحد ما يتنافى مع الأخلاق ، حتى إن السيدات المحترمات كن آنئاً بعد آن يهبن ابنة إلى مهنة العُهر فى المعابد ، بنفس الروح التى يوهب بها الابن إلى الكهنوت(١١٧) ، ويصف « ديبوا » — فى أول القرن التاسع عشر — معابد الجنوب بأنها كانت فى بعض الحالات كانت « تتحول إلى بيوت للدعارة ولا شىء غير هذا ، وكانت عامة الناس تطلق على « خادمات الله » — بغض النظر عن مهمتهن فى بداية الأمر — اسم الزانيات ، ويستخدمونهنّ على هذا الأساس ؛ ولو أخذنا بقول هذا « الأب » الكهل ، الذى لم يكن أمامه ما يبرر أن يتعصب للهند فيما يكتب ، علمنا أن :

« واجباتهن الرسمية تتألف من الرقص والغناء داخل المعابد مرتين كل يوم ... وكذلك فى الاحتفالات العامة كلها ؛ وهن يؤدين الرقص أداء رشيقا إلى درجة مرضية ، على الرغم من أن طريقة الرقص تثير الشهوة وليس فى إشاراتهن شيء من الوقار ؛ وأما غناؤهن فيكاد كله يتألف من أشعار فاحشة تصف ما مرّ فى تاريخ آلهتهم من حوادث الإباحية الجنسية »(١١٨) .

فى هذه الظروف التى يسودها عُهْر المعابد وزواج الأطفال ، لم يبق أمام ما نسميه « بالحبّ الشعرى » إلا أضيق الفرص ، نعم إن التفانى المثالى الذى يبديه أحد الجنسين تجاه الآخر ، له آثاره الظاهرة فى الأدب الهندى — مثال ذلك ما نراه فى أشعار « شاندى داس » و « چاباديڤا » — لكنه فى الأغلب يُتّخذ رمزاً للروح تسلم زمامها لله ؛ أما فى الحياة الواقعة ، وأكثر ما تظهر فيه هذه الروح هو تفانى الزوجة فى زوجها تفانياً كاملا ؛ وأحيانا ترى شعرهم الغزلى من الطراز الخيالى السامى كالذى يصوره شعراؤنا المحافظون على تقاليد الأخلاق الملتزمة من أمثال « تنسُنْ » و « لُنجيڤِلُو » وأحيانا أخرى تراه من الطراز الجسدى الحسى كالذى نعرفه فى عصر اليصابات(١١٩) ؛ فهذا أديب منهم يوحّد بين الدين والحب ، ويرى الجانبين معاً متمثلين فى نشوة الدين وفى نشوة الحب ، وهذا أديب آخر يذكر قائمة من ثلاثمائة وستين عاطفة مختلفة تملأ قلب المحب ، ويَعُدّ الأشكال التى رسمتها أسنانه على جسد حبيبته ، أو يصف كيف أخذ يزين نهدىْ حبيبته برسوم أزهار من معجون الصندل العبق ؛ وكذلك يصف لنا مؤلف قصتى « نالا » و « دامايانتى » فى ملحمة « ماهابهاراتا » آهات المحبين الحزينة وشجوهم كأحسن ما تراه عند الشعراء الجوالين فى فرنسا(١٢٠) .

لكن أمثال هذه الأهواء المتقلبة لم يُرْكن إليها إلا نادراً فى تقرير الزواج فى الهند ؛ ولقد أباح « مانو » ثمانية صنوف من الزواج ، كان أدناها فى القيمة الخلقية هو الزواج بالاغتصاب والزواج « بالحب » ؛ وأما الزواج بالشراء فهو

الصورة المقبولة على أنها الطريق المعقولة لتدبير الزواج بين رجل وامرأة ، فالمشرّع الهندى من رأيه أن صور الزواج التى تنبنى على أسس اقتصادية هى فى نهاية الأمر أسلم الصنوف عاقبة(١٢١) ، وفى أيام « دبْوا » كانت العبارة الهندية التى تعنى « يتزوج » ، والعبارة التى تعنى « يشترى زوجة » « عبارتين مترادفتين (١٢٢)»(*) .

وأحكم الزواج زواجٌ يدبره الوالدون مراعين فيه كل قواعد الزواج من داخل أو خارج ، فالشاب ينبغى أن يتزوج داخل طبقته الاجتماعية ، لكنه يختار زوجته من خارج مجموعته العائلية(١٢٣) ، وله أن يتزوج من زوجات كثيرات لكن واحدة منهن فقط يكون لها السيادة على الأخريات ، ويشترط فيها أن تكون من طبقته الاجتماعية ، على أن الأفضل — فى رأى مانو — أن يقتصر الزوج على زوجة واحدة(**)(١٢٤) وكان على الزوجة أن تحب زوجها فى تفان يصبر على المكاره ، وأما الزوج فلم يكن ينتظر منه أن يبدى لزوجته حباً شعرياً ، بل حماية أبوية(١٢٦) .

كانت الأسرة الهندية من الطراز الأبوى الصميم ، فالوالد هو السيد الكامل السيادة على الزوجة والأبناء والعبيد(١٢٧) وكانت المرأة مخلوقاً جميلا يُحَب ،

(*) يصف لنا سترابو (حوالى ٢٠ ميلادية) معتمداً على أرستوبولس « بعض العادات الجديدة غير المألوفة فى تاكسيلا فأولئك الذين يعجزون عن تزويج بناتهم بسبب الفقر يسوقونهن إلى ساحة السوق وهن فى عنفوان شبابهن ، فيسرن على صوت الأبواق والطبول (وهى الآلات نفسها التى كانوا يستخدمونها فى نداء المقاتلين إلى حومة القتال) وبهذا يجمعون حشداً من الناس ، فإذا ما أقبل رجل كائناً من كان أخذ الفتيات فى عرض ظهورهن حتى العواتق ، وبعدئذ كن يعرضن أجزاءهن الأمامية ، فإذا أعجبت واحدة منهن رجلا ، ثم قبلت هى ذلك الرجل على شروط متفق عليها ، فإنه يتزوج منها »(١٢٨) .

(**) لو أخذنا برأى « تود » فمن المألوف فى أسرة راجبوت المالكة أن يختار الأمير مجموعة من الزوجات لكل يوم من أيام الأسبوع تختلف عن مجموعات سائر الأيام(١٢٩) .

لكنها أحط منزلة من الرجل ؛ تقول أسطورة هندية : إن « تواشترى » المبدع الإلهى ، حين أراد فى البداية أن يخلق المرأة وجد أن مواد الخلق قد نفدت كلها فى صياغة الرجل ، ولم يبق لديه من العناصر الصلبة بقية ، فإزاء هذه المشكلة طفق يصوغ المرأة من القصاصات والجذاذات التى تناثرت من عمليات الخلق السابقة ، يختار قصاصة من هنا وجذاذة من هناك :

« فأخذ استدارة القمر ، وتثنى الزواحف وتعلق المحلاق وارتعاش الكلأ ودقة قصبة الغاب وازدهار الزهور وخفة أوراق الشجر وانخراط خرطوم الفيل ونظرات الغزال وتجمع النحل فى خلاياه ، وبهجة أشعة الشمس المرحة وبكاء السحاب ، وتقلب الريح وجبن الأرنب وزهو الطاووس وطراوة صدر البيغاء ، وصلابة جلمود الصخر ، وحلاوة العسل ، وقسوة النمر ، ووهيج النار الدافىء وبرودة الثلج وثرثرة أبى زريق ، وهديل الحمام ، ونفاق الكركى ووفاء الشكراكا ، ومزج كل هذه العناصر مزجاً صنع منه المرأة ثم وهبها للرجل »[١٣٦] لكن على الرغم من هذه العدة كلها ، لم يكن للمرأة فى الهند إلا أسوأ الحظوظ ؛ فمكانتها العالية التى بلغتها فى العصور القيدية ، زالت عنها بتأثير نفوذ الكهنة وبفعل المثل الذى رسمه المسلمون ، فترى الروح العامة فى « تشريع مانو » موجهة ضدها فى عبارات تذكرنا بمرحلة أولى من مراحل اللاهوت المسيحى : « إن مصدر العار هو المرأة ، ومصدر العناء فى الجهاد هو المرأة ، ومصدر الوجود الدنيوى هو المرأة ، وإذاً فإياك والمرأة »[١٣٠] وفى فقرة أخرى تقرأ : « إن المرأة لا تقتصر قدرتها على تضليل الأحمق عن جادة السبيل فى هـــذه الحياة ، بل هى كذلك قادرة على تضليل الحكيم ، فهى تستطيع أن تمساك بزمامه وأن تخضعه لشهوته أو لغضبته »[١٣١] ولقد نص التشريع على أن المرأة طوال حياتها ينبغى أن تكون تحت إشراف الرجل فأبوها أولا وزوجها ثانياً وابنها ثالثاً[١٣٢] ، وكانت الزوجة تخاطب زوجها فى خشوع قائلة له : « يا مولاى » و « يا سيدى » بل « يا إلهى » وهى تمشى خلفه

بمسافة إن مشيا على مرأى من الناس ، وقلما يوجه إليها هو كلمة واحدة[١٣٣] وينتظر من المرأة أن تبدى إخلاصها بخدماتها فى كل المواقف ، بإعدادها للطعام ، وبأكلها لما يتبقى بعد أكل زوجها وأولادها ، ويضمها لقدمى زوجها إذا حانت ساعة النوم[١٣٤] يقول مانو : « إن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم .. سيدها كما لو كان إلها ، وألا تأتى شيئاً من شأنه أن يؤلمه ، مهما تكن حالته ، حتى إن خلا من كل الفضائل »[١٣٥] أما الزوجة التى تعصى زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسدَ ابن آوى فى خلقها التالى[١٣٦] .

ولم يكن نساء الهند يتلقين تعليما — كأخواتهن فى أوروبا وأمريكا قبل عصرنا هذا الحديث — إلا إن كنّ من سيدات الطبقة الراقية أو زانيات المعبد[١٣٧]. ففن القراءة كان فى عرفهم لا يليق بامرأة ؛ ذلك لأن سلطانها على الرجال لا يقوى به ، ثم هو يؤدى إلى نقص فتنتها ؛ يقول « طاغور » على لسان « شيتْرا » فى إحدى مسرحياته : « إن المرأة يسعدها أن تكون امرأة فقط — أن تلف نفسها حول قلوب الرجال بابتساماتها وتنهداتها وخدماتها وملاطفاتها ؛ فماذا يجدى عليها العلم وجليل الأعمال[١٣٨] » ؟ وليس من حقها أن تلم بكتب الفيدا [١٣٩]، ففى الماهابهاراتا : « إذا درست المرأة كتب الفيدا كانت هذه علامة الفساد فى المملكة[١٤٠] »(*) ، ويروى المجسطى عن أيام « شاندراجوبتا » : « أن البراهمة يحولون بين زوجاتهم — ولهم زوجات كثيرات — وبين دراسة الفلسفة ؛ لأن النساء إن عرفن كيف ينظرن إلى اللذة والألم ، والحياة والموت ، نظرة فلسفية ، أصابهن مسٌ من جنون ، أو أبيْنَ بعد ذلك أن يظلَلْنَ على خضوعهن[١٤١] » .

(*) لا يجوز لنا أن نقارن هذه الحالة بآرائنا فى أوربا وأمريكا اليوم ، بل ينبغى أن نوازنها بكراهة رجال الدين فى العصور الوسطى لقراءة عامة الناس الإنجيل ، ولتربية المرأة تربية عقلية .

ثلاثة أشخاص فى تشريع مانو لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً : الزوجة والابن والعبد ، فكل ما يكسبه هؤلاء يصبح ملكاً لسيد الأسرة(١٤٢) ؛ على أنه يجوز للزوجة أن تحتفظ بملكية المهر والهدايا التى جاءتها عند زواجها ، وكذلك يجوز لأم الأمير أن تحكم البلاد فى مكان ابنها حتى يبلغ الرشد(١٤٣) ؛ ومن حق الرجل أن يطلق زوجته لخيانتها الزوجية ، لكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأى سبب من الأسباب(١٤٤) ، وفى مقدور الزوج إذا ما شربت زوجته الخمر أو إذا مرضت أو إذا شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو شكسة ، أن يتزوج من غيرها فى أى وقت شاء (لا أن يطلقها) ؛ على أن فى « التشريع » فقرات توحى بالرفق المستنير فى معاملة المرأة : فلا يجوز ضربهن « حتى بزهرة » ولا يجوز مراقبتهن مراقبة تجاوز الحدود فى صرامتها ، لأن دهاء مكرهن عندئذ يجد سبيلا للشر ، وإذا أحبين جميل الثياب فمن الحكمة ان تشبع فيهن ما أحبين « لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تثير فى صدر زوجها ميلا إليها » على حين أنه « إذا زينت الزوجة زينة بهيجة ، اكتسب المنزل كله مسحة الجمال(١٤٥) » ، ويجب أن تخلى الطريق للمرأة كما تخليه للكهول الكهنة ، والواجب أن يطعم « الحاملات والعرائس والكواعب قبل سائر الأضياف(١٤٦) » ولئن فات المرأة أن تحكم باعتبارها زوجة ، فلها أن تحكم بوصفها أمًّا ، وإن كانت المرأة أمًّا لأطفال كثيرين ، استحقت عند الناس أعظم العطف والتقدير ؛ فحتى تشريع مانو الذى يؤيد سيطرة الوالد فى الأسرة ينص على أن « الأم أولى بالتوقير من ألف والد(١٤٧) » .

ولا شك أن دخول الأفكار الإسلامية كان عاملا على تدهور مكانة المرأة فى الهند بعد العصر الفيدى ؛ فقد جاءت إليها عادة « البردة » (أى الستار) — وهى عزل النساء المتزوجات — مع الفرس والمسلمين ، ولذلك فهى أقوى جذوراً فى شمال البلاد منها فى الجنوب ؛ ولكى يحمى الأزواج الهنود

زوجاتهم من المسلمين — وهذا عامل من عدة عوامل — فقد اصطنعوا نظام « البردة وتمسكوا به فى تزمت بلغ من شدته أن المرأة المحترمة لا تستطيع أن تبدى نفسها لغير زوجها وأبنائها ، ولا يمكنها الانتقال خارج دارها إلا مستورة بقناع سميك ؛ حتى الطبيب الذى يعالجها ويجسّ نبضها ، لا مندوحة له عن أداء واجبه ذاك خلال ستار[١٤٨] ؛ وإنه لمن الخروج على القواعد الخلقية فى بعض الأوساط أن تسأل عن زوجة غيرك أو أن تتحدث وأنت ضيفٌ إلى سيدات البيت الذى يضيفك »[١٤٩] .

كذلك عادة إحراق الأرامل على الكومة التى احترق فيها أزواجهن جاءت إلى الهند من خارج ، ويقول عنها « هيرودوت » إنها كانت عادة جارية بين السُّكيّين القدماء وأهل تراقيا ؛ ولو كان لنا أن نصدقه فى روايته ، إذن لعلمنا أن زوجات الرجل من أهل تراقيا كن يقتتلن تسابقاً على امتياز القتل على قبر الزوج »[١٥٠] ، ولعل هذه الشعيرة قد هبطت إلى الهنود من عادة قديمة كادت تشمل شعوب العالم البدائية كلها ، وهى التضحية بواحدة أو أكثر من زوجات الأمير أو الغنىّ ، أو من خليلاته ، والتضحية معها بطائفة من عبيده ، وغير ذلك مما لابد من تقديمه قرباناً إثر وفاته ، وذلك ليُغنى هؤلاء بالميت فى الحياة الآخرة[١٥١] ؛ ويذكرها كتاب « أتارفاثيدا » على أنها عادة قديمة ؛ أما « رجْ ڤيدا » فيذكر لنا أن هذه العادة فى العصر الڤيدى كانت قد خفّ شأنها حتى أصبحت محصورة فى مطالبة الأرملة بالرقاد على كومة الحطب التى أعدت لزوجها لحظة قبل إحراق جثته[١٥٢] .

ثم تعود قصيدة « ماهابهاراتا » فتصف هذه العادة الاجتماعية وصفاً يدل على عودتها كاملة بغير شعور من الناس بفداحة ما يفعلون ، وهى تذكر أمثلة

كثيرة لهذه العادة(*) ثم تضع للناس قاعدة عامة مؤداها أن الأرملة الطاهرة لاتحب أن تحيا بعد زوجها بل تراها تدخل النار فخورة بصنيعها(١٥٣) ، وكانوا فى هذه المناسبات يحرقون جسد الزوجة فى حفرة من الأرض ، أو يدفنونها حية ، كما كان يحدث بين قبيلة « تلوج » فى الجنوب(١٥٤) ، ويروى لنا سترابو أن عادة قتل الزوجة بعد موت زوجها كانت شائعة فى الهند أيام الإسكندر ، وأن قبيلة « كاثى » — وهى قبيلة تسكن البنجاب — اتخذت من هذه العادة قانوناً حتى لا تدس زوجة لزوجها السم فتقتله(١٥٥) ولا يذكر « مانو » عن هذه العادة شيئاً ، ولقد عارضها البراهمة أول الأمر ، لكنهم عادوا فقبلوها ، وأخيراً خلعوا عليها قداسة دينية تحميها من العبث ، وذلك بأن جعلوها مرتبطة بأبدية الرابطة الزوجية : فالمرأة إذا ما تزوجت رجلا كان عليها أن تظل زوجته إلى الأبد ؛ وستعود إلى الارتباط الزوجى به فى حيواته المقبلة(١٥٦) ، وهذه الملكية المطلقة من الزوج لزوجته ، اتخذت فى « راجستان » صورة ما يسمونه « جوهور » وهى عادة تقضى على الرجل من أهل راجبوت ، إذا ما أصابه نوع معين من الهزيمة ، أن يضحى بزوجاته قبل أن يتقدم هو إلى الموت فى ساحة القتال(١٥٧) ، وانتشرت العادة فى حكم المغول انتشاراً واسعاً على الرغم من كراهية المسلمين لها ، ولقد فشل ملوك المسلمين ، حتى « أكبر » بكل نفوذه ؛ فى زحزحة هذه العادة من النفوس ، وحاول « أكبر » ذات مرة أن يثنى عروساً هندية عن تقديم نفسها طعاماً للنار على كومة الحطب التى أحرقت خطيبها الميت ، وتوسل إليها البراهمة بما يؤيد رجاء الملك ، لكن العروس أصرت على التضحية فلما دنت منها ألسنة اللهب ، وكان « دانيال » — ابن « أكبر » — عندئذ ماضياً فى إقناعها بالعدول ، أجابته قائلة : « كفى ، كفى » ؛ وحدث كذلك لأرملة أخرى أن رفضت مثل هذه التوسلات بالإقلاع عن التضحية بنفسها ، ووضعت إصبعها فى شعلة مصباح حتى التهمتها النار ،

(*) تسمى « سوتى » Suttee ومعناها « الزوجة المخلصة لزوجها » .

ولكونها أمسكت عن إظهار ألمها بأية علامة من علاماته ، فقد عبَّرت عن ازدرائها لأولئك الذين نصحوها بالإقلاع عن إحراق نفسها جرياً مع الطقوس(١٨٥) وفى « ڤيجايانا جار » كان قتل الزوجة هذا يتخذ صورةً جمعية ، فلا يكتفى فيه بقتل زوجة واحدة أو عدد قليل من زوجات الأمير أو القائد بعد موته ، بل كان لا بد لكل زوجاته أن يَتْبَعْنَهُ إلى الموت ؛ ويروى لنا « كونتى » إن (الرايا) أو الملك قد اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ عددهن اثنى عشر ألفاً ، ليكنَّ مُقَرَّبات له « على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات عند موته ، وإن ذلك ليعد شرفاً عظيما لهن »(١٥٩) وإنه من العسير علينا أن نحكم إلى أى حد كانت الأرملة الهندية فى عصور الهند الوسطى راضية النفس عن هذه العادة بقوة التأثير الدينى والعقيدة ، وبقوة الرجاء فى أن تعود إلى الاتحاد بزوجها فى الحياة الآخرة .

وأخذت « السوتى » — قتل الزوجة بعد موت زوجها — تقل شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الهند اتصالا بأوروبا ، ولو أن الأرملة لم تزل تعانى صعاباً كثيرة ؛ فما دام الزواج قد ربط المرأة بزوجها رباطاً أبدياً ، فإن زواجها مرة ثانية بعد موت زوجها كان يعد جريمة فادحة ، ومن نتائجه المحتومة أن يُحدث للزوج اضطراباً فى حيواته المقبلة ؛ وعلى ذلك كان لا بد للأرملة وفق القانون البرهمى أن تظل بغير زواج وأن تحلق شعرها وتحيا حياتها (إذا لم تُؤْثر لنفسها القتل فى نار زوجها) معنية بأطفالها ومشتغلة بأعمال البر والإحسان(١٦٠) ولم يكن يحكم على الأرملة بالفقر ، بل الأمر على عكس ذلك ، إذ كان لها الحق الأول فى أملاك زوجها(١٦١) غير أن هذه القواعد لم تجد قبولا إلا عند النساء المحافظات على التقاليد من نساء الطبقتين العليا والوسطى — وهؤلاء نسبتهن ثلاثون فى المائة من مجموع السكان — وأما المسلمون والسيخ والطبقات الدنيا فقد أهملوا تلك القواعد إهمالا تاماً(١٦٢) والرأى عند الهنود هو أن هذه العذرية الثانية التى تصطنعها الأرملة عندهم شبيهة بامتناع الراهبات فى المسيحية عن الزواج

فى كلتا الحالتين ترى طائفة من النساء يرفضْنَ الزواج ويكرسْنَ حياتهن لأعمال الإحسان(*) .

(*) عند النظر فى عادات الشعوب الأخرى ، يجب أن نذكر أنفسنا تذكيراً لا ينقطع بأن تقاليد الشعوب الأخرى لا يمكن الحكم عليها حكماً يقبله العقل ، وفق شريعتنا الخلقية يقول تود . « فالباحث السطحى النظر ، الذى يطبق معياره هو على عادات الأمم كلها يرثى لحالة المرأة الهندية فى تدهورها رثاء يدفعه إليه عطف إنسانى مصطنع ، لأنه سيجد تلك المرأة قليلة الرغبة فى مشاركته تلك العاطفة »(١٦٣) .

راجع الفصل التاسع « الثانى والعشرين فى الأصل » لتعلم ما طرأ فى عصرنا من تغيرات فى هذه العادات .

الفصل الرابع

آداب السلوك والعادات والأخلاق

الاحتشام الجنسى – الصحة – الملبس – المطهر – رقة الفن
عند الهنود – سيئات وحسنات – الألعاب – الأعياد – الموت

إن العقل الساذج قد يصعب عليه التصور بأن هؤلاء الناس الذين قبلوا نظما اجتماعية مثل زواج الأطفال وعُهْر المعابد وقتل الزوجة بعد موت زوجها ، هم كذلك غاية فى رقة الحاشية والاحتشام والمجاملة ؛ فلو غضت النظر عن عدد قليل من زانيات المعابد ، لوجدت البغاء نادراً فى الهند ، وألفيت العفة الجنسية مصونة إلى حد يستوقف النظر ؛ يقول « دِبُوَا » الذى لا يعطف على الهنود فى كتابته : « لا بد من الاعتراف بأن آداب السلوك واحترام المعاملة الاجتماعية أوضح فى قواعدها وأكثر اتباعاً لدى طبقات الهنود كلها ، حتى أدنى هذه الطبقات منزلة ، منها عند أى شعب أوربى له ما للهنود من مكانة اجتماعية »(١٦٤) ؛ فالدور الرئيسى الذى يلعبه الجنس فى الحديث وفى النكات عند الغربيين ، لا تعرفه آداب السلوك بين الهنود ، فهذه الآداب تحرم تحريما قاطعاً كل علاقة علنية بين الرجال والنساء من شأنها أن تعبر عما بينهم من ارتفاع الكلفة ، وهى تعتبر التلاصق البدنى بين الجنسين فى الرقص شيئاً مرذولا قبيحاً(١٦٥) ؛ وتستطيع المرأة الهندية أن تذهب خارج دارها أنى شاءت دون أن تخشى من أحد اعتداء أو إساءة(١٦٦) ؛ بل إن الوضع فى عين الشرقى على عكس ذلك ، إذ يرى الخطر فى ذلك واقعاً كله على الجنس الآخر ، فترى « مانو » يحذر الرجال : « إن المرأة نزاعة بطبعها دائماً أن تغرى الرجل ، ومن ثم كان واجباً على الرجل ألا يجلس فى عزلة مع امرأة حتى إن كانت من أقرب ذوات قرباه » ولا ينبغى لرجل أن ينظر إلى أعلى من عَقِبَىْ فتاة عابرة(١٦٧) .

وتأتى النظافة فى منزلة بعد العبادة مباشرة ؛ فليست القواعد الصحية « بالخُلُق الأوحد » كما ظن أناتول فرانس ، بل هى عندهم جزء حيوىٌ من العبادة ؛ ولقد سنّ « مانو » منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن ، ففى تعليماته مثلا : « يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزيّن جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة »(١٦٨) والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ؛ فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم وأن يغسل ثوبه الذى سيرتديه ، وإنه ، ليقشعر تقززاً إذا ما لبس الثوب — بغير غسل — أكثر من يوم واحد(١٦٩) ويقول سير « وليم هُيوبَرْ » : « إن الهنود يضربون المثل لنظافة الأجسام بين القبائل الآسيوية كلها ، بل لعلهم يضربونه بين أجناس العالم بأسره ، ولقد أصبح وضوء الهنود يجرى مجرى الأمثال(١٧٠)(*) .

وفيما يلى وصف عادات الأكل عند الهنود كما وصفها يوان شوانج منذ ألف وثلاثمائة عام :

« إنهم يندفعون إلى التطهر بدافع من أنفسهم ، لا يجبرهم عليه أحد ، فحتم عندهم أن يغتسل الآكل قبل وجبته ؛ ويستحيل أن تُقدَّم الفتات والبقايا لوجبة أخرى ؛ ولا تستعمل أوعية الطعام لأكثر من أكلة واحدة ، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله ، وأما ما كان منها مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، وجب إعادة صقله ؛ ولا يلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم ، ولا يلمس أحد منهم أحداً إلا إذا اغتسلوا متوضئين »(١٧٢)

(*) قال هندى كبير — هو لاجپات راى — مخاطباً أوروبا : « قبل أن تعرف الشعوب الأوروبية شيئاً من قواعد الصحة برمن طويل . وقبل أن تتبين فوائد فرجون الأسنان والاستحمام اليومى بزمن طويل ، كان الهنود بصفة عامة يتبعون العادتين ، فلم يكن فى منازل لندن أحواض للاستحمام حتى عشرين سنة مضت ، وكان فرجون الأسنان من أسباب الترف الكمالى(١٧١) .

فمن عادة البرهمى أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه قبل كل وجبة وبعدها وهو يأكل بأصابعه من الطعام الذى يُقدَّم على ورقة من أوراق الشجر اعتقاداً منه أنه مما يتنافى وقواعد النظافة أن يأكل مرتين من طبق واحد ؛ يسكين واحدة أو شوكة واحدة ، حتى إذا ما فرغ من طعامه ، غسل أسنانه سبع مرات(١٧٣) وفرجون أسنانه جديدة دائماً ، لأنها غصن شجرة يقطعه لتوه لأن الهندى يعتقد أنه مما يسىء إلى سمعته أن ينظف أسنانه بفرجون من شعر الحيوان ، أو أن يستعمل الفرجون للواحد مرتين(١٧٤) ، فما أكثر السبل التى يستطيع بها الناس أن يحتقروا بعضهم بعضا ؛ ولا ينفك الهندى يمضغ ورقة من أوراق نبات الفلفل التى تصبغ الأسنان صبغة قاتمة لا يرضاها لنفسه الأوروبى ، بل لا يرضاها الهندى نفسه ، لكن هذه المضغة مضافة إلى الأفيون الذى يأكله حيناً بعد حين ، يعوضانه عن امتناعه المألوف عن تدخين التبغ واحتساء المسكرات :

فى كتب القانون الهندى نصوص صريحة على ما ينبغى اتباعه من القواعد الصحية فى حيض المرأة(١٧٥) ، وفى تلبية نداء الطبيعة ؛ فلن تجد من القوانين ما هو أدق فى ذكر التفصيلات وأرْصَنُ فى طريقة التعبير ، من تلك التى تذكر طقوس التبرز عند البراهمة(١٧٦) فالبرهمى إذا ما انخرط فى سلك الكهنوت وجب ألا يستعمل فى هذه الطقوس إلا يده اليسرى ، ويجب أن يستخدم الماء فى تنظيف هذه الأجزاء ، وإنه ليعيد بيته نجساً إذا دخله الأوروبيون ، لأنهم يكتفون فى هذه العملية بالورق(١٧٧) ، وأما المنبوذون وكثيرون من طبقة الشوادرا فهم أقل من ذلك مراعاة للدقة ، وقد يزيلون هذه الضرورة الطبيعية فى أى مكان ، من جانب الطريق(١٧٨) ، ولذا فإن الأحياء التى تسكنها هذه الطوائف يُكتنى فيها من أجل الصحة العامة « بمجرور » مفتوح يشق فى وسط الطريق(١٧٩) .

وفى مناخ حار كمناخ تلك البلاد ، تكون الثياب نافلة ، فكثت ترى السائلين والأولياء الصالحين عراة الأجسام ، وبذلك العرى أكملوا درجات

السُّلم الاجتماعى ؛ ولقد تهددت إحدى طوائف الجنوب — كما فعلت قبيلة دوخوبور فى كندا — بالهجرة إلى مكان آخر لو اضطر أفرادها إلى لبس الثياب(١٨٠) ، وكانت العادة فى أواخر القرن الثامن عشر — على الأرجح — أن يسير الجنسان فى الهند الجنوبية (ولا يزال الناس على هذه الحال فى بالى) عراة فيما يعلو أوساطهم(١٨١) ، وكان الأطفال يكتسون فى الأغلب بخرزات وحلقات ؛ ومعظم الناس يمشون حفاة الأقدام ؛ وإن لبس الهندى الأصيل حذاء اتخذه من القماش ، لأنه لا يجوز تحت أى ظرف أن ينتعل حذاء من الجلد ؛ وعدد كبير من الرجال كان يكفيه من الثياب خرقة على ردْفيه ، فإذا أرادوا الزيادة من الغطاء لفوا أوساطهم بثوب ، وطرحوا طرفه المرسل على الكتف اليسرى ؛ وأما أهل راجپوت فكانوا يلبسون السراويل من كل لون وشكل ، وصداراً مخروماً بمنطقة فى أسفله ، ولفاعاً حول الرقبة ، وخُفّاً أو حذاء فى القدم ، وعمامة على الرأس ؛ جاءتهم هذه العمامة مع المسلمين ، ثم أخذها الهنود ، وجعلوا من عادتهم أن يلفُّوها لفّاً متقناً حول رؤوسهم فى أشكال مختلفة تدل على طبقة لابسها ، لكنها فى جميع الحالات تتألف من قماش حريرى لا ينتهى طوله ، تظل تفكه بغير نهاية كأنه مسحور ، فقد يبلغ طول القماش فى العمامة الواحدة — إذا ما نشرته — سبعين قدماً (١٨٢) ؛ ونساؤهم يلبسن أثواباً فضفاضة من حرير يسمونها «سارى» أو يلبسن « خداراً » من نسيج البلاد ، يتلفعن به على أكتافهن ، ويربطنه عند الوسط ربطاً وثيقاً ، ثم يرسلنه على القدمين ، وهن يتركن أحياناً جزءاً من أجسادهن البرونزية عارياً تحت الثديين ؛ ومن عاداتهم كذلك أن يطلوا شعورهم بالزيت ليقيهم حرارة الشمس اللافحة ؛ أما الرجال فيفرقون شعورهم فى الوسط ، ثم يجمعون أطرافه فى حزمة خلف الأذن اليسرى ، وأما النساء فيضفرن بعض شعرهن حويّةً فوق الرأس ، ثم يرسلن بقية الشعر إرسالا ، وكثيراً ما يزينّه بالزهور ، أو يغطينه بلفاع ؛ فكان لرجالهم هندام لطيف ، ولفتياتهم جمال ، وجميعهم

ذوو قوام رائع[١٨٣] ، وكثيراً ما يكون الهندى من عامة الناس بقماشة ثوبه على ردفيه أكثر فى طلعته جلالا من دبلوماسىّ أوروبى كامل الثياب الرسمية .

ومن رأى « پيير لوتى » : « أنه مما لا يحتمل جدالا أن جمال الجنس الآرى يبلغ ذروة كماله ورقته فى الطبقة العليا فى الهند[١٨٤] » وكلا الجنسين ماهر فى استخدام الدهون للتجمل . ونساؤهم يشعرن كأنما هن عراة إذا كن بغير حلى ؛ وعندهم أن خاتماً يوضع فى جانب الأنف الأيسر يدل على الزواج ، وفى معظم الحالات ، تراهم يرسمون على الجبهة رمزاً يدل على العقيدة الدينية .

وإنه لمن العسير أن تنفذ خلال هذه الظواهر الخارجية لتصف أخلاق الهنود ، لأن كل شعب فيه خليط من فضائل ورذائل ، وترى الزائرين يختارون من هذه ما يروقهم بحيث يؤيدون وجهة نظرهم أو يزينون رواياتهم بما يمتع : يقول « الأب دبوا » : « أظن أن أبشع رذائلهم هو الخيانة والخداع والغش ... وهى صفات شائعة بين الهنود جميعاً . . . . ويقيناً أنك لن تجد على الأرض شعباً يستخف بحلف اليمين أو شهادة الزور كما يستخفون[١٨٥] » . ويقول « وسترمارك » : « لقد قيل إن الكذب هو الرذيلة القومية عند الهنود »[١٨٦] ويقول ماكولى : « الهنود مخادعون متلوّنون[١٨٧] » فالكذب إذا اقترف بنية حسنة كان مغتفراً فى رأى « مانو » وفى مواضعات الحياة العملية ؛ فمثلا إن كان قول الصدق سيؤدى إلى موت كاهن ، فالكذب عندئذ له ما يبرره[١٨٨] لكن « يوان شوانج » يروى لنا فيقول « إنهم لا يعرفون الخداع ويرعون التزاماتهم التى أقسموا عليها ... وهم لا يعتدون على ما ليس لهم إستعمدين ، ويتنازلون عن حقوقهم أكثر مما تقتضى العدالة[١٨٩] » . ويقول « أبو الفضل » الذى لا يذهب بهواه مع الهنود ، يقول عن هنود القرن السادس عشر : « إنهم متدينون ، محبون إلى النفوس ، مرحون ، محبون للعدل ، زاهدون فى الحياة ، قادرون فى التجارة ، يدّعون للصدق ، ويعترفون بالجميل ، ويتصفون بالوفاء

الذى لا حد له[١٩٠] » . ويقول عنهم «كير هاردى» الأمين : « إن أمانتهم مضرب الأمثال ، فهم يقترضون ويقرضون ، لا تلزمهم فى ذلك إلا كلمة غير مكتوبة ، ويكادون لا يعرفون عدم الوفاء للدين[١٩١] . ويقول قاض بريطانى فى الهند : « لقد عرضت أمامى مئات القضايا حيث كانت أملاك الفرد منهم وحريته وحياته متوقفة كلها على كذبة يقولها ، ومع ذلك يأبى على نفسه الكذب[١٩٢]. فكيف لنا أن نوفق بين هذه الشهادات المتضاربة؟ يجوز أن يكون التوفيق بينها غاية فى البساطة ، وهو أن بعض الهنود أمين وبعضهم خائن .

وكذلك قل إن الهنود غاية فى القسوة وغاية فى الرقة فى آن معاً ؛ فلقد استحدثت اللغة الانجليزية لفظة قصيرة قبيحة ، استعارتها من تلك الجمعية السرية العجيبة — التى تكاد تكون طبقة اجتماعية — جمعية « الغادرين » التى ارتكبت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آلاف الجرائم الشنيعة ، وذلك — كما قالوا — بغية تقديم هؤلاء الضحايا قرابين للإلاهة «كالى»[١٩٣] ، وأما الكلمة التى استحدثتها اللغة الإنجليزية لتدل على هؤلاء الغادرين فهى Thugs وقد كتب عنهم « فنسنت سمث » بلغة ليست غريبة عن عصرنا هذا ، فقـــال :

« هذه العصابات توشك ألا تخشى أحداً ، وتكاد تتمتع بحصانة تامة ... فلها دائما حُماةٌ أقوياء ، ولقد هبط الشعور الخلقى عند الناس هبوطا بحيث لا تشهد فيهم أثراً للجزع من هذه الجرائم المدبّرة التى يقترفها هؤلاء « الغادرون » . ذلك أن هذه الفئة المجرمة قد انخرطت فى مجرى أمور الحياة جزءاً منها لا يتجزأ ؛ وقبل أن يفتضح سر هذه الجمعية ، ... كان يستحيل عادة أن تظفر بدليل يثبت الجريمة على هؤلاء الغادرين ، حتى الذين اشتهروا منهم بين الناس[١٩٣] .

ورغم ذلك فالجرائم فى الهند قليلة نسبياً ، وحوادث الاعتداء نادرة ، فالعالم كله مُجْمع على أن الهنود من الوداعة بما أوشك أن يكون جُبناً وضعفا[١٩٤].

فهم يجاوزون الحدود فى التزلف وحسن الطوية ، وقد طحنتهم رحى الغزو والحكومات المستبدة الأجنبية زمناً امتد وطال إلى حدٍّ أفقدهم القدرة على أن يكونوا من المقاتلين الأشداء ، إلا إذا فهمنا القتال بمعنى احتمال الألم ، عندئذ ترى لديهم من الشجاعة ما لا يشق لهم فيه غبار(١٩٥) ولعل أبشع سيئاتهم عدم المبالاة والكسل ، ولو أن هاتين الصفتين فى أعين الهنود ليستا من السيئات ، بل هما ضرورتان للمناخ ومواءمة أنفسهم لجوّ بلادهم ، مثل حلاوة الطبع ، التى تتصف بها الشعوب اللاتينية ، والحمى الاقتصادية التى جُنّ بها الأمريكيون والهنود حساسون ، عاطفيون ، وذوو أهواء وأصحاب خيال ؛ ولذلك تراهم أبرع فى الفن والشعر منهم فى الحكم والتنفيذ ، فلئن وجدتهم يستغلون بعضهم بعضاً استغلالا فيه من الشدة والعنف ما تلمسه فى المستغلين لسواهم فى أى بلد من بلاد العالم ، فقد كانوا كذلك يتصفون بسخاء لا يقف عند حد ، وهم أكرم أهل الأرض للضيف ، إذا ماغضضت النظر عن الشعوب الهمجية الأولى(١٩٦) فحتى أعداؤهم لا يسعهم إلا الاعتراف بحسن مجاملتهم(١٩٧) ، وهـذا هو إنجليزىّ سمح الأخلاق يلخص لنا تجاربه الطويلة فيعزو للطبقات العليا من أهل كلكتا « آداب السلوك المهذبة ووضوح التفكير وكماله وشعور التسامح والتمسك بالمبدأ ، مما يطبعهم بطابع السادة المهذبين فى أى بلد من بلاد العالم »(١٩٨).

والعبقرية الهندية فى عين الغريب عن البـلاد تبدو حزينة سوداء ، لا شك فى أن الهنود لم يصادفهم فى الحياة كثير مما يبرر لهم المرح ، وتشير محاورات بوذا إلى أنواع كثيرة مختلفة فى اللعب ، بينها لعبة شديدة الشبه جداً بلعبة الشطرنج(١٩٩)(*) ، لكن لا هذه الألعاب ولا التى أعقبتها تدل على فرح

(*) الشطرنج من القدم بحيث ترى نصف الشعوب القديمة تدعيه لنفسها لكن الرأى السائد بين الباحثين فى منشأ هـذه اللعبة هو أنها نشأت فى الهند ، ويقيننا أننا نجد هناك أقدم شبيه لها مما لا يحتمل الجدل (حوالى سـنة ٧٥٠ ميلادية) ، وكلمة شطرنج بالإنجليزية chess جاءت اشتقاقاً من الكلمة الفارسية شاه ومعناها ملك ، وكلمة « كش الملك » بالإنجليزية Checkmate =

ومرح كاللذين تراهما فى ألعاب الغربيين ، وأدخل « أكبر » لعبة « البولو »(*) فى الهند فى القرن السادس عشر ، التى جاءت على الأرجح من بلاد فارس ثم شقت طريقها عبر التبت إلى الصين واليابان(٢٠٢) وكان يمنعه أن يلعب لعبة « باشيسى » (وهى تسمى اليوم پارشيسى) فى مربعات تحفر فى أرض فناء القصر فى « أجرا » ، وكان يتخذ للعبة فطعاً حية من الإماء الجميلات(٢٠٣).

وكانت الأعياد الدينية الكثيرة تخلع لوناً زاهياً على حياة الشعب ، وأعظم هذه الأعياد « دورجا – بوجا » الذى يقام تكريماً للإلهة الكبرى أم الآلهات « كالى » ، فيأخذ الهنود فى الاحتفال والغناء عدة أسابيع قبل قدوم ذلك العيد ، ثم يأتى يوم الحفل العظيم ، فيسير موكب تحمل فيه كل أسرة تمثالا للإلهة ، ويتجه صوب الكنج حيث يلقون فى النهر بتلك التماثيل الصغيرة ، ثم يعود الجميع إلى ديارهم ليس على وجوههم شىء من علائم المسرح السابق .

– هى فى الأصل « شاه مات » أى « مات الملك » ويسميه الفرس « شطرنج » ولقد أخذوا الكلمة واللعبة كليهما من الهند عن طريق العرب ، وكانت اللعبة فى الهند يطلق عليها اسم « شاطورنجا » ومعناها « الزوايا الأربع » – الفيلة والجياد والعربات الحربية والمشاة ؛ ولا يزال العرب يسمون القطعة التى هى بالإنجليزية **Bishop** بالفيل(٢٠٠) .

ويروى لنا الهنود أسطورة ممتعة يعللون بها نشأة اللعبة ، فتقول هذه الأسطورة إنه فى بداية القرن الخامس من التاريخ الميلادى ، أساء ملك هندى إلى أعوانه المحبين به من طبقتى البراهمة والكشاترية ، وذلك بأن أهمل مشورتهم ناسياً أن حب الشعب له أرسخ دعامة لعرشه ، فأخذ برهمى – يدعى سيسا . على نفسه أن يفتح عينى الملك الساب باختراعه لعبة تكون فيها القطعة التى تمثل الملك – رغم سموها عما عداها فى الجلال والقيمة (كما هى الحال فى حروب الشرق) – إن تركت وحدها تكاد تجرد من كل حول وقوة ، ومن ثم جاءت لعبة الشطرنج ؛ ولقد أعجب الملك باللعبة إعجاباً دعاه إلى أن يطلب إلى سيسا أن يحدد لنفسه ما شاء من جزاء ، فطلب سيسا فى تواضع حصفة من أرز ، وإنما يحدد مقدارها بأن توضع حبة واحدة من الأرز فى المربع الأول من مربعات رقعة الشطرنج ، وعددها أربعة وستون ؛ ثم يضاعف فى كل مربع لاحق عدد حبات الأرز فى المربع السابق . فوافق الملك من فوره ، لكنه سرعان ما دهش إذا رأى أن وعده ذاك يقتضى أن يدفع كل ما فى ملكه ، فانتهز « سيسا » هذه الفرصة السانحة ، وأشار إلى مولاه كيف يمكن للملك أن يعدل عن جادة السبيل إذا ازدرى رأى مستشاريه(٢٠١) .

(*) وهى من كلمة فى التبت تنطق **Pulu** ، وجعلتها اللهجة الهندية الدالتية **Polo** ومعناها كرة **Ball** راجع علاقة الكلمة باللاتينية **Pila** .

وأما الاحتفال « المقدّس » الذى كانوا يقيمونه تكريماً للإلهة « ڤاسانتى » فقد كان يصطبغ بشىء من المجون ، إذ يحملون — وهم مشاة فى صف — رموزاً للعلاقة الجنسية يهزونها هزات تمثل حركات العملية الجنسية(٢٠٥) وكان وقت الحصاد فى « شوتاناجپور » إيذاناً بإباحية خلقية « حيث يطّرح الرجال جانباً كل أوضاع التقاليد ، ويخلع النساء عن أنفسهن كل حياء ، ويترك للفتيات الحبل على الغارب يفعلن ما شئن بغير قيود » ؛ وهناك قبيلة تدعى « پارجانى » — وهى طبقة من الفلاحين تسكن تلال « راج محل » — تقيم احتفالا زراعياً كل عام ، يباح فيه لغير المتزوجات أن ينغمسن فى علاقات جنسية حرة من كل ضابط أو نظام(٢٠٦) .

ولا شك أن فى هذه الحفلات آثاراً من السحر الزراعى القديم الذى كان مراده أن يزيد الأسر والحقول خصوبة ؛ وأما حفلات الزواج التى تتمثل فيها أكبر حادثة فى حياة الهندى ، فقد كانت أكثر احتشاماً ، وكم من أب جلب على نفسه الخراب فى إعداد وليمة فاخرة بمناسبة زواج ابنته أو ابنه(٢٠٧) .

وفى ختام الحياة يقام حفل ختامى . هو الاحتفال بإحراق جثمان الميت ؛ فقد كانت الطريقة المألوفة فى أيام بوذا هى الطريقة الزرادشتية فى تعريض الجثة لسباع الطير ، إلا إن كان الميت من الأعلام البارزين ، فعندئذ تحرق جثته بعد موته ، على كومة من الحطب ، ثم يدفن رماده فى ضريح يحفظ ذكراه(٢٠٨) لكن هذه الطريقة فى إحراق الجثة عمت الناس جميعاً فيما بعد ، حتى لترى كل ليلة حطباً يجمع ويكوّم لإحراق الموتى ؛ وفى عصر « يوان شوانج » لم يكن من الحوادث النادرة أن يُقْبل الكهول المتقدمون فى السن على الموت راضين ، فيطلبوا إلى أبنائهم أن يسبحوا فى زورق على نهر الكنج إلى منتصفه حيث يقذفون بأنفسهم فى نهر الخلاص(٢٠٩) . ومثل هذا الانتحار فى ظروف معينة قد صادف فى الشرق قبولا أكثر مما صادف فى الغرب ؛ فكان مباحاً فى عهد « أكبر » للكهول وللمرضى الذين لا رجاء

فى شفائهم ، ولأولئك الذين ابتغوا بقديم أنفسهم قرباناً للآلهة ؛ وإن بين الهنود آلافاً كان آخر عبادتهم أن يُجيعوا أنفسهم حتى الفناء ، أو أن يدفنوا أنفسهم فى الثلج ، أو يهيلوا على أنفسهم روث البقر ثم يشعلوا فيه النار ، أو أن يتركوا أنفسهم للتماسيح تلتهمهم عند مصب الكنج ؛ ولقد نشأ بين البراهمة نوع من « الهاراكيرى » (وهو اسم للانتحار عند اليابانيين يأتونه تخلصاً من عار) فينتحر المنتحر ليردّ عن نفسه أذى أو يحتج على إهانة ؛ وحدث أن فرض أحد ملوك راجپوت ضريبة على طبقة الكهنة ، فطعن عدد كبير من أغنى البراهمة أنفسهم انتحاراً بين يديه ، وهم يستنزلون عليه لعنة هى فى زعمهم أبشع اللعنات وأشدها أثراً — ألا وهى لعنة يستنزلها كاهن وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؛ وتنص كتب التشريع البرهمى على أن من أراد أن ينتزع روحه بيده ، عليه صيام ثلاثة أيام ، وأما من حاول الانتحار وفشل فى إنجازه فعليه أن يؤدى أقسى ما عرفوه من كفّارة وتوبة[٢١٠]، ألا إن الحياة مسرح له مدخل واحد ومخارج عدة .